الفصل السادس

خلافة عمر (٩٩ ـ ١٠١ هـ)

أولاً ـ بيئة الحكم الأموي السياسية والاجتماعية والاقتصادية

كان عمر بن عبد العزيز هو الخليفة الثامن من خلفاء بني أمية بعد معاوية بن أبي سفيان (٤١ ـ ٦٠هـ) مؤسس الدولة الأموية ، إلى عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) بعد عهد الخلافة الراشدية .

لكن كان نمط الحكم الأموي يختلف جذرياً عن سيرة الخلفاء الراشدين في أمر أساسي ألا وهو جعل الحكم ملكاً وراثياً ، بعد أن كان شورياً ، فصار الخليفة يوصي بالخلافة لمن شاء بعده ، على أن يبايعه المسلمون ، ويوافقوا على تعيينه موافقة صورية فقط ، بعد أن كانت البيعة والاختيار هي طابع تعيين الخليفة ، على أساس الشورى والتعرف على آراء الناس ، مما حرم الأمة فرصة حرية التغيير والتبديل ، كما حرمها إمكان الإصلاح في ميادين الثروة والاقتصاد ، فانتشرت المظالم التي أدت الى كراهية الحكم الأموي ، والى ظهور الثورات والانتفاضات ضد الخلفاء الأمويين . وكان الفقهاء في المدينة وغيرها في طليعة المعارضين أشد المعارضة للأمويين ، ووجهوا لهم سهام النقد الشديد ، بل لم يبايعوهم أحياناً ، لجعلهم الأمر ملكاً ، ولإهمالهم التمسك بسنة السلف .

obeikandi.com

كثرت الأحداث والفتن والثورات المسلحة ضد الأمويين ، وظهرت الفرق الإسلامية المتعددة ، كالخوارج الذين أخافوا أهل العراق ، لولا بأس الحجاج وأمثاله ، حتى إن الحجاج جلد أنس بن مالك ، وقتل سعيد بن جبير ، وجلد أمير المدينة جابر بن الأسود سعيد بن المسيب سيد التابعين خمسين سوطاً ، وطاف به أسواق المدينة،وكان يزيد بن عبد الملك يسمي الحسن البصري بالشيخ الجاهل (١) .

وأصبحت البلاد مرتعاً للفساد ، ومباءة للانقسام والتمزق والتفرق ، في عهد يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤هـ) في فاجعة كربلاء ، وقتل الحسين وأقاربه إلا نفراً قليلاً رضي الله عنهم ، وفي وقعة الحَرَّة سنة ٦٣ هـ بالمدينة التي ذهب ضحيتها الآلاف من أبناء الصحابة وزعماء المدينة ، مما أدى الى ظهور الشيعة بالكوفة ، فجمعوا السلاح ، ودعوا الناس للأخذ بثأر الحسين ، فصارت العراق مسرحاً للثورات والفتن بين الخوارج والشيعة .

وبرزت القبلية المدمرة بسبب سياسة مروان ومن بعده من تقريب اليمانيين وإبعاد القيسيين ، فاشتعلت نار العصبية بين الطرفين .

وحدث انقسام في الخلافة ، فبايعت الحجاز ثم العراق عبدالله بن الزبير ، حتى قتل سنة ٧٣هـ .

وشاعت ظاهرة البذخ والترف والفساد ومجالس اللهو والغناء في بلاط بعض الحكام ، وانغمس الناس في حياة الرفاهية والإنفاق ، وأصبح الميل للمال في عهد الأمويين وبين جماعتهم هو التقليد السائد ، وجمع الولاة المال من الناس بالحق وبالباطل .

وكانت البلاد قبيل تولية عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) تغلي كالمراجل بالفوضى والاضطراب، ففي الحجاز عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهلها، وفي العراق ثورة الخوارج والشيعة ، وفي الشام عمرو بن سعيد بن العاص يطالب

---

(١) تاريخ الفقه الاسلامي للدكتور علي حسن عبد القادر : ص ١١٢

بالخلافة ، والبلاد الإسلامية مهددة من الشمال بخطر البيزنطيين ، ومن الغرب بثورة البربر ، فقضى عبد الملك على الفتن وأسكتها ، وقمع ثورة الشيعة والخوارج ، فلما ولي الوليد الخلافة وجد البلاد هادئة مطمئنة .

وتوسعت البلاد كثيراً في عهد الوليد بفتح الأندلس سنة ٩٢هـ بقيادة موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، وانتشر الإسلام في بلاد المغرب ، وحاول سليمان فتح القسطنطينية ، لولا إحراق الروم سفن المسلمين وفشل الحملة البحرية

وأصبحت حدود الدولة الإسلامية من نهر السند والصين شرقاً الى المحيط الأطلنطي وجبال البرينيه غرباً ، ومن البحر العربي والصحراء الأفريقية الكبرى جنوباً الى جبال طوروس شمالاً .

عرف عمر بن عبد العزيز أخطاء بني أمية في سياسة المال ، فإنهم استعملوا بيت المال لإرضاء رغباتهم ، وتحقيق تأييدهم ، يعطون منه من يشاؤون ، ويمنعون من يشاؤون ، فتزداد العداوة والنقمة عليهم ، ويزداد الطمع والشره من لأصدقاء فيهم .

وأدرك عمر خطر المظالم وأخذ المال ظلماً من الناس ، وقدر أسباب النقمة على الأمويين ، وعرف منشأ ظهور الفرق الإسلامية ، فبدأ يفكر بمنهج الإصلاح الذي ينقذ البلاد من المشكلات المستعصية . وكان حقاً هو المصلح المجدد المنقذ الذي بعثه الله على رأس المائة الأولى من الهجرة ليجدد للناس أمر دينها ، بإحياء السنة وإماتة البدعة ، وكان البلسم الشافي للأمة من جراحها ، وتخفيف ويلاتها ، وإنقاذها من نكبتها .

ثانياً ـ التبشير بالخلافة :

بشَّر رجاء بن حَيْوَةَ عمر بن عبد العزيز بالخلافة حينما كان والياً على المدينة في عهد سليمان بن عبد الملك ، وكان رجاء من أهل الأردن ، وكان من أعبد

أهل زمانه ، وكان مَرضيّاً حكيماً ذا أناة ووقار ، وكانت الخلفاء تعرفه بفضله . فيتخذونه وزيراً ومستشاراً وقيّماً على عُمّالهم وأولادهم ، وكان له من الخاصة والمنزلة عند سليمان بن عبد الملك ما ليس لأحد ، يثق به ويستريح إليه ، وكان بين رجا وعمر صداقة وصحبة في النسك والعبادة .

وكان لعمر بن عبد العزيز منزلة خاصة عند سليمان دون بني مروان . فأراد سليمان أن يعلم علم عمر وحاله التي هو عليها ، فبعث إليه رجاء بن حيوة ليأتي خبره وطريقته وحاله في سيرته وطعمته .

فقدم رجاء بن حيوة على عمر بن عبد العزيز ، وأقام عنده أياماً . وفي هذه الزيارة رأى رجاء رؤ يا عن عمر أعجبته وحدث بها نفسه ، ثم قصها على عمر ، وخلاصتها : أنه رأى النبي ﷺ ، فكان يؤ تى بالخلفاء أمامه خليفة خليفة بدءاً من أبي بكر ثم عمر ، حتى أفضى الأمر الى عمر بن عبد العزيز ، وقال له :

أتي بك مجموعةً يداك الى عنقك ، ثم وَقَفت بين يديه طويلاً ، ثم أمر بك فأطلق الغُل ، ثم أجلست مع أبي بكر وعمر بن الخطاب .

فاشتد عجب عمر بن عبد العزيز لرؤ يا رجاء بن حيوة ، ثم قال :

يـا أبا المقدام ، والله ، لولا ما أثق به من صحبتك وورعك ، وجدك واجتهادك ، ووفائك وصدقك ، لأنبأتك أني لا آلي شيئاً من أمر الخلافة أبداً ، ولكني قد سمعت كلامك ورؤيـاك ، وما أخلق بي ، سوف أبتلي بأمر هذه الأمة ، فوالله لئن ابتُليت بذلك ، وإنها شرف الدنيا ، لأطلبن بها شرف الآخرة [1]

ثالثاً ـ بداية الخلافة ومدتها وأعمال عمر :

عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بـن الخطـاب كما يقولـون ، وفي الأصح لغة : سبطه ، ولذلك لقب بالخليفة الصالح ، وهو خامس الخلفاء الراشدين ،

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٣٨ ـ ١٤١

كان متواضعاً ناسكاً محباً للعدل والاستقامة ، وكان فوق ذلك متقشفاً في ملبسه ، غير مترف في معيشته ، يصرف كل يوم درهمين .

تولى الخلافة في صفر سنة ٩٩ هـ وهو قول يقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾.
وقد عرفنا سابقاً كيف تم استخلافه بعهد من الخليفة سليمان ، وكيف خلع نفسه ، وترك الأمر لبيعة المسلمين العامة في الشام وبقية الأمصار .

إعراضه عن مظاهر الخلافة :

وقد ظهرت عليه مخايل الورع والدين والتقشف والصيانة والنزاهة ، من أول حركة بدت منه ، حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة ، وهي الخيول الحسان الجياد المعدة له ، والاجتزاء بمركوبه الذي كان يركبه ، وسكنى منزله رغبة عن منزل الخلافة . وأمر ببيع مراكب الخلافة ورد ثمنها في بيت المال [1] .

من كلماته في خطبة البيعة :

خطب الناس بعد البيعة الخطبة المألوفة للخلفاء بعد توليهم الخلافة وانعقاد البيعة ، وكانت خطبة طويلة مشتملة على منهاج سياسته وخطته في الحكم [2] ، تضمنت إعلانه الالتزام بحدود الله في قرآنه ، ودعوة الناس الى الإسلام كافة ، وكيفية معاملة الذميين غير المسلمين في دار الإسلام . وأن الأموال العقارية ملك الجماعة أو الأمة ، وأن الحمى يباح للمسلمين عامة ، وغير ذلك مما قدمناه ، وهو الالتزام بالأحكام الإسلامية ، وبسيرة الخلفاء الراشدين .

وكان مما قال في خطبته [3] .

---

(١) صفة الصفوة : ٢/ ٦٤ ، البداية والنهاية : ٩/ ١٨٤ ، الآجري : ص ٥٥ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣١ .
(٢) ابن عبد الحكم : ص ٩٣ - ٩٩
(٣) البداية والنهاية : ٩/ ١٨٤

أيها الناس ، إن لي نفساً تواقة لاتعطى شيئاً إلا تاقت الى ماهو أعلى منه ، وإني لما أعطيت الخلافة ، تاقت نفسي الى ماهو أعلى منها وهي الجنة ، فأعينوني عليها ، يرحمكم الله (١) .

أول أعماله :

كان مما بادر إليه عمر في السنة التي استخلف فيها : أن بعث الى مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين ، وهم بأرض الروم محاصرو القسطنطينية ، وقد اشتد عليهم الحال ، وضاق عليهم المجال ؛ لأنهم عسكر كثير ، فكتب إليهم يأمرهم بالرجوع الى الشام الى منازلهم ، وبعث إليهم بطعام كثير وخيول كثيرة عتاق يقال : خمسمائة فرس ، ففرح الناس بذلك .

وفي السنة الأولى من خلافته ، أغار الترك على أذربيجان ، فقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين ، فوجه إليهم عمر حاتم بن النعمان الباهلي ، فقتل أولئك الأتراك ، ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وبعث منهم أسارى الى عمر وهو بخناصرة .

وفي هذه السنة عزل يزيد بن المهلب عن إمرة العراق ، وبعث عدي بن أرطاة الفَزاري على إمرة البصرة ، فاستقضى عليها الحسن البصري ، ثم استعفاه فأعفاه ، واستقضى مكانه إياس بن معاوية الذكي المشهور .

وبعث على إمرة الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وضم إليه أبا الزناد كاتباً بين يديه ، واستقضى عليها عامراً الشعبي ، واستمر قاضياً عليها مدة خلافة عمر بن عبد العزيز .

وجعل على إمرة خراسان : الجراح بن عبدالله الحكمي ، وكان أميرمكة عبد العزيز بن عبدالله بن خالد بن أسيد .

---

(٢) المرجع السابق : ٩/ ١٨٤ ـ ١٨٥ ، ابن عبد الحكم : ص ٣٧

وجعل على إمرة المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة .

وعزل عن إمرة مصر عبدالملك بن أبي وداعة ، وولى عليها أيوب بن شرحبيل ، وجعل الفتيا الى جعفر بن ربيعة ، ويزيد بن أبي حبيب ، وعبيدالله بن أبي جعفر، فكان هؤلاء يفتون الناس .

واستعمل على أفريقية وبلاد المغرب اسماعيل بن عبيد الله المخزومي ، وكان حسن السيرة ، وأسلم في ولايته على بلاد المغرب خلق كثير من البربر .

ومن نوادره : أنه كتب كتاباً الى العمال ، عدّ فيه الولاية بلاء ، فقال : من عبدالله أمير المؤمنين الى العمال :

أما بعد ، فإن من بُلِيَ من أمر السلطان بشيء ، فقد ابتُلي في الدنيا ببلية عظيمة،مع ما ابتُلي به في خاصة نفسه ، فنسأل الله عافيته وحسن معونته ، وأي بلاء أشد من بلاء يبسط للمرء فيه لسانه وفعله ، فإن مال فيه إلى كل هوىً أو سخطة كان فيه ، وكَف (١) ، إلا أن يعفو الله ويغفر ، فإنما وجدت واليَ السلطان عبداً مملوكاً وَليَ ضيعة ، عليه الاجتهاد في إصلاحها ، أجره إحسان إن أحسنه ، وإحسان عمل به فيهم على ملكه الذي خلقه لما شاء أن يخلقه له ، فانزل بتلك المنزلة في أمرك ، واصبر على ما كرهت، واصبر على ما أحببت، وقف نفسك في كل سر وعلانية عند الذي ترجو به النجاة عند ذلك ، حتى تفارق الذي أنت فيه ، فإن ذلك لعله أن يكون الى قريب ، وأنت محسن ومأجور .

وتذكر ما سلف منك من عملك فيماسلف ممالا تحب فأصلحه قبل أن يتولى صلاحَه غيرُك . ولايكبر عليك في ذلك قول الناس ، إذا علم الله أنك تجعل ذلك له ، فإنه سيكفيك المؤونة في عاجل الأمر،مع ما يدخر لك من الخير فيما عنده .

---

(١) الوكف : الميل والجور والعيب والإثم (القاموس المحيط)

obeikandi.com

وكن لمن ولاك الله أمره ناصحاً ، فيما بعثتك إليه من أمورهم في دينهم ، وأعراضهم، واستر كل ما استطعت من عوراتهم إلا شيئاً أبداه الله لايصلح لك ستره ، واملك نفسك عنهم إذا هَوِيت وإذا غضبت ، حتى يكون ذلك فيما استطعت مستوياً حسناً .

وإذا سبقك أمر أو سلف منك هوىً أو غضب ، فراجع أمرك ، فقد رأيت حقاً أن أكتب إليك بالذي كتبت به مما استطعت ، ونستعين بالله ، ونسأله أن يصلح لنا عملنا ، ويكفينا مؤونة مانحن فيه ، ومؤ ونة ما نرجع إليه فيما بعد الموت بأحسن كفاية ، والسلام [1] .

مدة خلافته القصيرة :

لم تطل مع الأسف الشديد مدة خلافة عمر ، وإنما كانت قصيرة كخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه (١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ ـ ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ) أي سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، وخلافة عمر سنتان وخمسة أشهر وأربعة أيام [2] .

ولكن كان للخلافتين آثار بعيدة في التاريخ، بالرغم من قصرهما، فخلافة أبي بكر ثبتت الإسلام، وكفلت له الاستقرار والدوام، وعدم الانتقاض، بمحاربة المرتدين مانعي الزكاة، وافتتحت في أيامه بلاد الشام وقسم كبير من العراق.

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز استقرت أوضاع المسلمين الداخلية ، واطمأن الناس في أيامه ، وهدأت الثورات ، لما اتصف به من الحلم والأناة والحكمة ، وحكم الناس بالعدل والقسطاس المستقيم ، وردَّ المظالم ، وانتهج منهج الراشدين ، حتى لقب بأنه خامس الخلفاء الراشدين ، تشبيهاً له بهم ،

(١) ابن عبد الحكم : ص ٨٧ ومابعدها

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ١٩٢

وكانت طريقته في إدارة الولايات إطلاق الحرية للعامل ، لا يشاور الخليفة إلا في أهم المهمات مما يشكل عليه أمره ، وهو مايسمى اليوم بالنظام اللامركزي .

وكان عمر في الحقيقة في كل أموره مظهراً وروحاً حكماً مقسطاً ، وإماماً عادلاً ، وورعاً ديِّناً ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ملأ أرض الإسلام عدلاً ، ورد المظالم ، وسن السنن الحسنة [1] .

وقد أجمع العلماء قاطبة [2] على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، وذكره غير واحد في الأئمة الاثني عشر الذين جاء فيهم الحديث الصحيح : «لايزال أمر هذه الأمة مستقيماً حتى يكون فيهم اثنا عشر خليفة ، كلهم من قريش» . وقال سفيان الثوري : الخلفاء خمسة : أبو بكر ، وعمر ، عثمان ، وعلي ، وعمر بن عبد العزيز [3] .

رابعاً ـ موازين الحكم الصالح في عهد عمر :

انتهج عمر في خلافته وولايته على المدينة نهج جده العظيم عمر بن الخطاب ، وأعاد في الناس سيرته الزاكية الطاهرة ، وكان في موازينه دقيق الحكم ، صائب الرأي ، بعيد التقدير ، عميق الفكر ، حليم التدبير والسياسة غير متسرع ولا متورط ، وإنما يصدر رأيه عن دراسة عميقة ، واستقصاء وتتبع ، واعتبار بأخطاء من سبقه في الخلافة ، وجدِّية وصرامة في تنفيذ الرأي مبتدئاً بنفسه وأهل بيته ليكون قدوة حسنة للناس ، وقد تبلورت سياسته في المبادىء التالية التي التزمها ، والخطة المنهجية الإسلامية التي اختطها لنفسه :

---

(١) المرجع السابق ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣١

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٠ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٢٨ ، اخبار عمر للآجري : ص ٥١

(٣) أخرجه أبو داود في سننه . وهكذا روي عن أبي بكر بن عياش وخارجة بن مصعب والشافعي وغير واحد .

١ ـ حب السلف الصالح وتعظيمهم :

تمكّن في قلب عمر بن عبد العزيز حب الصحابة والسلف الصالح من الأمة ، استجابة لدافع الإيمان ، وتقديراً لرابطة أخوة المؤمنين ، فشأن المؤمن اللاحق: الاحترام والترضي عن المؤمنين السابقين، عملاً بقوله تعالى: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الـذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك غفور رحيم﴾ فهي أخوة في الدين، ولاشك أنها أعز وأسمى من أخوة النسب ، وشأن الأخ محبة أخيه ، فلا يلعن آخر الأمة أولها .

وأحسن إلى آل البيت النبوي ، قال جويرية : دخلنا على فاطمة ابنة الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنها ، فأثنت على عمر بن عبد العزيز ، وقالت : لو كان بقي لنا ما احتجنا بعدُ إلى أحد[١] .

وكان إحسانه أيضاً شاملاً الأمة الإسلامية ، فكتب إلى أمراء الأجناد يطلب منهم في خطبهم الدعاء للمسلمين عامة ، قال : «فإذا أتاك كتابي هذا ، فمُرْ قصّاصكم ، فليصلوا على النبي ﷺ ، وليكن فيه إطنابُ دعائهم وصلاتهم ، ثم ليصلوا على المؤمنين والمؤمنات ، وليستنصروا الله ، ولتكن مسألتهم عامة للمسلمين، وليدعوا ما سوى ذلك ، فنسأل الله التوفيق في الأمور كلها، والرشاد والصواب والهدى فيما يحب ويرضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والسلام عليك» [٢] .

وقد ارتاح الناس لهذا الصنيع ، وحلّ هذا الفعل من قلوبهم محلاً حسناً ، وأكثروا مدحه بسببه ، وردده الشعراء في مدحهم لعمر ، مثل الشريف الرضي وكثيرِّ عَزَّة .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٥

(٢) ابن عبد الحكم : ص٩١

٢ ـ تطبيق الشريعة واتباع سنة الخلفاء الراشدين والتزام العدل :

عرفنا في بيان الجانب العلمي عند عمر أنه لايعرف مصدراً للعلم والعمل والالتزام إلا القرآن والسنة النبوية ، مع الاستهداء بسيرة الخلفاء الراشدين ، لقوله ﷺ : «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ» وقوله عليه السلام : «تركت فيكم شيئين ، لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض» [١] .

وقد أشاد المؤرخون بهذا الالتزام ، فقال عمرو بن مهاجر قوله الذي ذكر سابقاً : لما استخلف عمر بن عبد العزيز ، قام في الناس فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام ، ألا وإني لست بقاض ، ولكني منفذ ، ولست بمبتدع ، ولكني متبع ، ولست بخير من أحدكم ، ولكني أثقلكم حملاً ، وإن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق [٢] . وكان عمر يقول : ياليتني قد عملت فيكم بكتاب الله ، وعملتم به ، فكلما عملت فيكم بسنة وقع مني عضو ، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسي [٣] .

وكان ينهى المتحدثين في مجلسه عن التكلم بما لا يفيد ، عما لا صلة له بالقرآن والسنة ، فقال : «إذا اجتمعتم فأفيضوا في كتاب الله ، فإن تعدّيتم ذلك ففي السنة عن النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن تعدّيتم ذلك ، فعليكم بمعاني الحديث [٤]»

---

(١) الحديث الأول رواه أبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية ، والثاني رواه الحاكم عن أبي هريرة .

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣١

(٣) ابن عبد الحكم : ص ١٤٧

(٤) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٩ ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣

وقد عرفنا سابقاً مدى حرصه على اتباع سيرة عمر بن الخطاب من خلال طلبه من سالم بن عبدالله (١) موافاته بسيرة هذا الخليفة العظيم .

وكتب إلى الحسن البصري حين ولي الخلافة يطلب منه بيان صفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله ، وجاء في كتابه :

الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته .

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته .

والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين ، يربي صغيرهم ، ويمون كبيرهم .

والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر الى الله ويريهم، وينقاد الى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبدٍ ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣١ ، أخبار عمر للآجري : ص ٧٠ ـ ٧٣

openkanda.com

واذكر يا أمير المؤمنين الموت ومابعده وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له مايصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه [١] .

وكتب الحسن إلى عمر : «أما بعد ، فكأنك بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل» [٢]

٣ ـ الحرص على العدل والمساواة وحرية التعبير :

لقد قام الإسلام على منهج الحق والعدل ، وأمر بالمساواة ، وكفل للناس حرية الرأي في إطار نظام الشرع وأعلى شأن الكرامة الإنسانية ، وكان عمر بن عبد العزيز يدرك هذه المعاني تمام الإدراك ، فحرص على أن تظهر هذه المبادىء في الناس ويلمسها الجميع منه في خلافته ، فجعلها نصب عينيه في معالجته الأمور ، والحكم في القضايا وألزم بها ولاته وعماله ، وأكد عليهم ضرورتها وأهميتها .

فكتب الى عامل له يقول : إن استطعت أن تكون في العدل والإصلاح والإحسان بمنزلة من كان قبلك في الظلم والفجور والعدوان ، فافعل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله [٣] . وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه • إن مدينتنا قد خربت ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمُّها به فعل ، فكتب إليه عمر :

---

(١) وللحسن رسالة بليغة ومؤثرة أخرى لعمر (انظر أخبار عمر للآجري : ص ٧٩ ومابعدها) وله أيضاً رسالة ثالثة : ابن عبد الحكم : ص ١٤٥

(٢) البيان والتبيين : ٣/ ٧١

(٣) ابن عبد الحكم : ص ١٢١

إذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل ، ونقِّ طرقها من الظلـم ، فإنـه مَرَمَّتُهـا ، والسلام .

وقال أيضاً : إنما هلك من كان قبلنا بحبسهم الحق حتـى يشترى منهـم ، وبسطهم الظلم حتى يفتدى منهم [١] .

وكتب إلى محمد بن كعب القرظي كما كتب إلى الحسن البصري قائلاً: صف لي العدل، فقال: بخٍ ، سألت عن أمر جسيم، كن لصغير الناس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمِثْل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم ، وعلى قدر أجسادهم ، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحـداً ، فتعـدَّ من العادين [٢] .

وفي الحق كان عمر عادلاً بين الرعية ، حتى بوأه ذلك أن يلحق بالراشدين ، ويصبح خامس الخلفاء الراشدين ، وأنه امام هدى [٣] .

فمن أقواله في منع الظلم : إذا دعتك قدرتك على الناس الى مظلمة ، فاذكر قدرة الله عليك ، ونفاد ما تأتي إليهم ، وبقاء ما يأتون إليك[٤] .

ومن أجل المساواة : لم يميز عمر بين الناس في الحقـوق وتـولي الوظـائف والولايات ، فلم يقرِّب قريباً ، ويُبعد بعيداً ، وإنما سوّى بين الناس جميعاً ، قال الأوزاعي : إن عمر بن عبد العزيز كان جالساً في بيته ، وعنده أشراف بني أمية ، فقال : أتحبون أن أوليِّ كل رجل منكم جنداً ؟ فقال رجل منهم : لم تعرض علينا ما لا تفعله؟ قال: ترون بساطي هذا؟ إني لأعْلَم أنه يصير الى بِلىً وفنـاء، وإني أكره أن تدنسوه بأرجلكم ، فكيف أوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم ؟ هيهات لكم هيهات ! فقالوا له : لِمَ ؟ أما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ قال :

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٢ ، حلية الأولياء : ٥/ ٣١١
(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٣
(٣) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥
(٤) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٧

ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندي في هذا الأمر إلا سواء ، إلا رجلاً من المسلمين حبسه عني طولُ شقته . قال الأوزاعي : لما قطع عمر بن عبد العزيز ما كان يجري عليهم من أرزاق الخاصة، كلموه في ذلك ، فقال : لن يتسع مالي لكم ، وأما هذا المال فإنما حقكم فيه كحق رجل بأقصى بَرْك الغماد [1] .

وكلمه رحمه الله تعالى رجل من قيس في حاجة ، وجعل يمتّ بقرابة ، فقال عمر : «وإن ذاك» ثم ذكر حاجته ، فقال : «لعل ذاك» لم يزده على أن قال : «فإن ذاك ، ولعل ذاك» أي فإن ذاك كما قلت ، ولعل حاجتك أن تقضى [2] .

ومن أجل تقديره الحرية في التعبير عن الإرادة والاختيار الحر : ضرب المثل الأعلى للخلفاء بعزل نفسه من ولاية العهد ، وترك للناس حرية الاختيار والبيعة ، دون تقيد بما التزمه وجهاء الناس وكبار بني أمية بالمبايعة لما عهد إليه ابن عمه الخليفة سليمان بن عبد الملك[3] .

وكانت طريقته بعد استخلافه في إدارة الولايات إطلاق الحرية للعامل ، لا يشاور الخليفة إلا في أهم المهمات مما يشكل عليه أمره .

وأعلن بكل صراحة بعد استخلافه استئناف الحرية السياسية التي قررها الإسلام لأتباعه ، وهي نقد الحكام حينما ينحرفون عن جادة الحق ومنهج الاستقامة ، وممارسة حرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعدم مهادنة الظلم .

قال في خطبة البيعة : «أيها الناس ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم» [4] وهذا المعنى مأخوذ من خطبة الخليفة الأول أبي بكر ؛ لأن عمر ألزم نفسه بسيرة الراشدين .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧ ، وبرك الغماد: موضع بناحية اليمن.

(٢) البيان والتبيين : ٢/١٤٧ وقد أتى الجاحظ بهذا الكلام نموذجاً أو مثالاً للكلام المحذوف

(٣) البداية والنهاية : ٩/٢١٢ ومابعدها

(٤) البداية والنهاية : ٩/٢١٣ ، صفة الصفوة : ٢/ ٦٥

وكان يحاول من باب السياسة الجمع بين العدل والحرية والإغـراء المادي ، فيقول : لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما استكملت فيكم العدل ، إني لأرى الأمر ، وأخاف ألا تحمله قلوبكم ، فأخرج معه طمعاً من الدنيا ، فإن أنكرت قلوبكم هذا ، سكنتُ إلى هذا . وقال أيضاً : «ألا وإنكم لتعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم . . وإني لحبيب إليّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ، ولا حول ولا قوة إلا بالله» .

وكتب عمر الى عمرو بن قيس السكوني حينما ولاه الصائفة ، فقال : اقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، ولا تكن في أولهم فتقتل ، ولا في آخرهم فتفشل ، ولكن كن وَسَطاً حيث يُرى مكانك ويسمع صوتك [1]

ومن مواقف عمر السياسية الرائعة القائمة على حب العدل والوفاء بالعهد والميثاق حتى مع الأعداء : قصته مع أهل سمرقند[2] مما لم نعلم أن أحداً وصل في العدل إليه :

شكى أهل سمرقند لعاملهم سليمان بن أبي السري أن قتيبة بن مسلم الباهلي القائد الفاتح المعروف غدر بهم وظلمهم وأخذ بلادهم ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف ، فأذن لنا ، فليفد منا وفد الى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يشكون ظلامتنا ، فإن كان لنا حق أعطيناه ، فإن بنا الى ذلك حاجة .

فأذن لهم ، فوجهوا منهم قوماً الى عمر ، فلما علم عمر ظلامتهم ، كتب الى سليمان يقول له :

إن أهل سمرقند قد شكوا ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم ، حتى أخرجهم من أرضهم ، فإذا أتاك كتابي ، فأجلس لهم القاضي ، فلينظر في

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٢

(٢) الكامل لابن الأثير : ٥/ ٤٤ ط ليدن . فتوح البلدان للبلاذري ، تاريخ الأمم الإسلامية للخضري : ١/ ١٨١

أمرهم ، فإن قضى لهم ، فأخرجهم الى معسكرهم ، كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة .

فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضي ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم ، وينابذوهم على سواء ، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة .

فقال أهل الصغد (إقليم سمرقند) : بل نرضى بما كان ، ولا نحدث حرباً ، وتراضوا بذلك ؛ لأن ذوي الرأي فيهم قالوا : قد خالطنا هؤلاء القوم ، وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم، فإن عدنا إلى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة ، فتركوا الأمر على ما كان، ورضوا .

٤ ـ حفاظه على الأموال العامة ·

يقضي الدين والورع بوجوب المحافظة على الأموال العامة ، فلا يؤخذ منها شيء قل أو كثر ؛ لأنها أموال الأمة ، وقد شبه الخليفة عمر بن الخطاب وضع الخليفة من مال بيت المال بوضع الوصي من مال اليتيم ، فقال : «أنزلت نفسي من بيت مال المسلمين بمنزلة وصي اليتيم» .

وسار عمر بن عبد العزيز على هذا المنهج في حكمه كله ؛ لأن الحاكم لا يكون رشيداً عادلاً إلا إذا كان على مال الدولة حريصاً ، وعلى حقوقها ومصالحها أميناً غيوراً ؛ لأن من يسرق مال الأمة ، أو يضيع حقاً من حقوقها ليس جديراً بقيادتها ، بل يكون في الواقع عدواً لها ، ومقامراً بمصالحها ، فبيت المال لجميع المسلمين ، ولكل واحد منهم أن يأخذ حقه منه على قدم المساواة مع غيره ، وكان عمر يرى في السياسة الاقتصادية وحدة بيت المال ، فلو اغتنى بلد وافتقر آخر ، سد البلد الغني حاجة البلد الفقير وعجزه ، حتى لو لم يبق له شيء .

وكان عمر المثل الأعلى في العفة والقناعة والحرص على مال الأمة ، فكانت نفقته كل يوم درهمين ، وكان عمر قبل الخلافة مترفاً ، من أعطر الناس ، وألبس الناس ، وأخيلهم في مشيته ، فلما استخلف، قيمة ثيابه اثنا عشر درهماً : كُمَّته (قلنسوته) وعمامته ، وقميصه ، وقباءه ، وقَرْطَفه (قطيفته) ، ورداءه ، وخفيه . ويلبس الثوب بثمانية دراهم وكان قبل الخلافة يلبسه بثمانمائة درهم[1] .

ولم يجد الحاقدون المتشككون ـ كما سلف بيانه ـ في حجرة خاصة به بعد وفاته سوى مسجد مفروش بالحصا ، وسلسلة معلقة بسقف البيت ، كان إذا فتر عن العبادة أو ذكر بعض ذنوبه وضعها في رقبته ، وصندوقاً مقفلاً فيه سفط[2] فيه دراعة وتبان (سروال قصير) ، ومسوح غليظ ، أو مقطعات من مسوح كان يلبسها بالليل[3] .

ويطفىء الشمعة التي يستضيء بها ـ كما بينا ـ عند بحث أحوال المسلمين ، ثم يوقد السراج عند البحث في أحواله الخاصة[4]، ويأبى من تسخين الماء على مطبخ العامة ، ويعوض قيمة ذلك ، ويضع القيمة في بيت مال المسلمين[5] ، ويرفض أكل لحم شواه له غلامه في نار مطبخ المسلمين ، قائلاً لغلامه : كلها يا بني، فإنك رزقتها ولم أرزقها[6] .

ورفض أن يأكل عسلاً بدينارين استقدمته له امرأته على بغل البريد، وباع العسل فيمن يزيد ، ورد رأس المال لزوجته ، وألقى بقيته في بيت مال المسلمين ،

---

(١) صفة الصفوة : ٢/ ٦٧ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٦ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٢ ، ابن عبد الحكم : ص ٥٠

(٢) السفط : وعاء معروف عند العرب يوضع فيه بعض الأمتعة .

(٣) البداية والنهاية : ٩/ ٢١٥ ، أخبار عمر للآجري : ص ٧٠

(٤) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٧

(٥) ابن عبد الحكم : ص ٤٧

(٦) حلية الأولياء : ٥/ ٢٩١ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٢

قائلاً : «أنصبتِ دواب المسلمين في شهوة عمر ؟» [1] ورفض أيضاً أن يأكل من سلّتي رطب أرسلهما إليه أمير الأردن على دواب البريد ، وأمر ببيعهما وجعل ثمنهما في علف دواب البريد ، وقال : «فما جعلني الله أحق بدواب البريد من المسلمين» [2]

وأرجع عمر الى فيء المسلمين مزرعته في خيبر التي أعطاها مروان الى أبيه ، وتركها كما كانت في عهد الرسول ﷺ فيئاً للمسلمين ، وقال بعد أن مزق سِجلّها : أتركها حيث تركها رسول الله ﷺ [3].

ووضع حلي زوجته فاطمة بنت عبد الملك في بيت المال ، بسبب الشبهة وهي إصابته من أبيها عبد الملك ، بعد أن وافقت على ذلك قائلة له : افعل ماشئت . وامتنعت من أخذه حينما رده عليها أخوها يزيد بن عبد الملك ، وقالت : ما كنت لأتركه ، ثم آخذه . فقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه [4] .

ورد بلدة فَدَك على بيت المال .

قال مغيرة : جمع عمر حين استخلف بني مروان ، فقال : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانت له فَدَك ، ينفق منها ، ويعولُ منها على صغير بني هاشم ، ويزوج منها أيِّمهم ، وإن فاطمة سألته أن يجعلها لها ، فأبى ، فكانت كذلك حياة أبي بكر ثم عمر ، ثم أُقطعها مروان ، ثم صارت لعمر بن عبد العزيز ، فرأيت أمراً منعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة ليس لي بحق ، وإني أشهدكم أني قد رددتها على ما كانت على عهد النبي ﷺ [5] .

---

(١) أخبار عمر للآجري : ص ٥٤
(٢) ابن عبد الحكم : ص ٥٤
(٣) ابن عبد الحكم : ص ٦١
(٤) ابن عبد الحكم : ص ٦٢ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٢
(٥) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣١ ـ ٢٣٢

وأعجب من هذا كله بعد أن قدرت نفقة عمر في خلافته ، وضع أمواله في سبيل الله ، قال الحكم بن عمر الحمصي : أول شيء بدأ به عمر بن عبد العزيز أنه لم يترك ظلامة مزرعة، ولا طِلِبةً لأحد قِبَلَه إلا ردها إليه، وباع ما كان له في المزارع من عبد أو أمة أو بهيمة أو آلة، وباع ما كان له من متاع أو مركب أو لباس أو عطر وأشياء سماها «الحكم الحمصي» في حديثه ، فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار ، ثم جعلها في سبيل الله .

وقال غير الحكم : بلغ ثلاثة وأربعين ألف دينار ، فجعلها في سبيل الله ، وابتاع جارية تخبز له وتطحن وتغسل ثيابه بمائة ، ووصيفاً في حاجته ورسالته ، وكان يزن له في كل يوم درهمين لحمه وخبزه وبقله إن غلا السعر أو رخص [1] .

وتصرفات كهذه تنبيء عن مقدار تركته بعد وفاته ، قال عبد الرحمن بن القاسم : «مات عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وخلف أحد عشر ابناً ، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً ، كفن منها بخمسة دنانير ، واشتري له موضع قبر بدينارين ، وقسم الباقي بين بنيه ، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً» .

حقاً إن حرص عمر على مال الدولة من أول يوم ولي فيه الخلافة من أعاجيب الأحداث التاريخية النادرة التي لم يسجل التاريخ مثيلاً لها ، فالمتبادر الى ذهن الإنسان ألا يغتني الحاكم على حساب الدولة ، لكن أن يبيع ماله ويجعله في مال الدولة ، فهو أمر غير منتظر ولا محسوب ولا يطالبه به أحد ، ولا يمكن لإنسان أن ينتقده بل يكبره ويجله إن قارن بين حاله قبل الولاية وحاله بعد الولاية ، فلم يجد أثراً لثراء أو غنى أو زيادة عقار أو مال منقول . قال ملك الروم حينما بلغه موت عمر : لست أعجب من الراهب أغلق بابه ورفض الدنيا وترهب وتعبد ، ولكن أتعجب ممن كانت الدنيا تحت قدميه ، فرفضها ثم ترهب [2] .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٤٥ -١٤٦

(٢) حلية الأولياء : ٥/ ٢٩٠

٥ ـ أداء الحقوق لأهلها :

كأن الله أطلع عمر على قصر مدة خلافتـه ، فكان يتعجـل الإصـلاح ورد المظالم ، وأداء الحقوق لأهلها ، فور توليه الخلافة ، وبمجرد اطلاعه على الحـق دون تأجيل ولا إرجاء . جاءته امرأة من أهل الكوفة، فقالت: يا أمير المؤمنين ، ما أصبت أنا ولا بناتي مما قسم أمير المؤمنـين قليلاً ولا كثـيراً، قال: ومَـنْ بك ؟ قالت : العرفاء والمناكب ، قال : ارجعي إلي حتـى العشية ، فأكتـب لك ، ثم قال : مَهْ ، فلعلي لا أبلغ العِشاء ، ثم كتب لها كتاباً بحقوقها(١) .

وقصص أخرى في تعجيله قضاء الحقوق ، منها : قال مولى لعمر بن عبد العزيز حين رجع من جنازة سليمان بـن عبـد الملك الخليفـة الراحل : مالي أراك مغتماً ؟ قال: لمثل ما أنا فيه يغتم له، ليس من أمة محمد ﷺ أحد في شرق الأرض وغربها إلا وأنا أريد أن أؤدي حقه ، غير كاتب إلي فيه ، ولا طالبه مني (٢) .

وقال عامر بن عبيدة: أول ما أنكر من عمر بن عبد العزيز أنه خرج في جنازة ، فأتي ببرد كان يلقى للخلفاء ، يقعدون عليه إذا خرجوا الى جنازة ، فألقي له ، فضربه برجله ، ثم قعد على الأرض ، فقالوا : ما هذا ؟

فجاء رجل ، فقـام بـين يديه ، فقـال : يا أمير المؤمنـين ، اشتـدت بي الحاجة ، وانتهت بي الفاقة ، والله سائلك عن مقامي غداً بين يديك ، وفي يده قضيب قد اتكأ عليه بسنانه .

فقال: أعد لي ما قلت، فأعاد عليه ، قال: يا أمير المؤمنين، اشتدت بي الحاجة ، وانتهت بي الفاقة ، والله سائلك عن مقامي هذا بين يديك . فبكى عمر حتى جرت دموعه على القضيب ، ثم قال: ما عيالك ؟ قال : خمسة ، أنا وامرأتي وثلاثة أولادي .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٤٥ والعرفاء والمناكب : الأعوان من رئيس القوم وغيره من الأقارب .

(٢) حلية الأولياء : ٥/ ٢٨٩

قال : فإن الفرض لك ولعيالك عشرة دنانير ، ونأمر لك بخمسمائة ، مائتين من مالي ، وثلاثمائة من مال الله ، تبلغ بها ، حتى يخرج عطاؤك [1] .

٦ ـ رد المظالم :

اجتهد عمر رحمه الله في مدة ولايته ، مع قصرها ، حتى رد جميع المظالم ، وصرف إلى كل ذي حق حقه ، وكان مناديه في كل يوم ينادي : أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلاً من هؤلاء [2] .

بدأ بنفسه حتى إنه رد فص خاتم كان في يده ، قال : أعطانيه الوليد من غير حقه ، وخرج من جميع ما كان فيه من النعيم في الملبس والمأكل والمتاع[3] وظن أن ماجمعه أبوه وآل بيته لم يكن بطريق مشروع ، فعزم على التخلص مما ورثه ، ورده على من أخذ منه ، فقال لغلامه :

«يامزاحم إن هؤلاء القوم أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطونا إياها، وما كان لنا أن نقبلها، وإن ذلك قد صار إلي، وليس علي فيه دون الله محاسب» . ثم رد حلي زوجته فاطمة وجهازها الى بيت المال ، ثم رد أموال بني أمية الى بيت المال وسماها أموال المظالم ، وقد كان على حق فيما فعل لما شاهده من تضخم الثروة بأيديهم ، وحرمان الأكثرين منها ، ولم يتم ذلك بالخفاء ، وإنما علناً وصراحة ، فقد جمع الناس على الصلاة ، ثم قال للناس وهم مجتمعون : إن أهله قد أقطعوه مالم يكن له أن يأخذ ، ولم يكن لهم أن يعطوه . ثم أخبرهم أنه قد بدأ بنفسه وأهل بيته ، وضم ما تحت يده الى بيت مال المسلمين . وأحرق سجلات خيبر وأعادها فيئاً كما تركها رسول الله ﷺ ، ورد أرض فَدَك في بيت المال على ماكانت عليه في عهد

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٨٩ ، البيان والتبيين : ٣/ ٢٣١

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٠

(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٨

النبي ﷺ ، ولم يبق إلا مزرعة السويداء إذ كان قد استنبطها بعطائه . ولم يكتف عمر باسترداد الأموال من بني أمية ووضعها في بيت المال ، وإنما طلب من الناس أن يرفعوا إليه جميع المظالم ليردها ويرفعها عن كواهل أصحابها ، سواء أكانت أرضَين أم مزارع أم ممتلكات أم أموالاً أخرى ، وكان هذا في منهاج خطته التي أعلنها في خطبة البيعة قائلاً [1] :

وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها ولا في كتابها ، إنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقاً .

ثم رفع صوته فقال : أيها الناس ! من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله ، فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم .

ثم نزل فدخل ، فأمر بالستور فهتكت ، والثياب التي كانت تبسط للخلفاء ، أمر بها فبيعت ، وأدخل أثمانها في بيت المال . ثم ذهب يتبوأ مقيلاً ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال :

يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : يا بني أقيل ، قال : تقيل ، ولا ترد المظالم إلى أهلها ؟

فقال : إني سهرت البارحة في أمر سليمان ، فإذا صليت الظهر ، رددت المظالم ، فقال له ابنه : ومن لك أن تعيش الى الظهر ؟

قال : ادن مني أي بني ، فدنا منه ، فقبل بين عينيه ، وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني . ثم قام ، وترك القائلة ، وأمر مناديه فنادى :

ألا من كانت له مظلمة فليرفعها .

---

(١) صفة الصفوة : ٢/ ٦٥ ، البداية والنهاية : ٩/ ٢١٣

فقام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال :

يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله ، قال: ما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي ، والعباس جالس ، فقال له عمر : ياعباس ما تقول؟ قال : نعم ! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد ، وكتب لي بها سجلاً ، فقال عمر : ما تقول يا ذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى .

فقال عمر : نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ، قم فاردد عليه ضيعته ، فردها عليه .

واشتكى ناس من المسلمين الى عمر بن عبد العزيز أن رَوْح بن الوليد بن عبد الملك قد أخذ حوانيتهم في حمص ، فقال له عمر : اردد عليهم حوانيتهم . قال له رَوْح : هذا معي بسجل الوليد ، قال : وما يغني عنك سجل الوليد ، والحوانيتُ حوانيتُهم ، قد قامت لهم البينة عليها ؟ خلِّ لهم حوانيتهم ، فقام رَوْح والحمصي المشتكي ، فتوعّد رَوْح الحمصي ، فرجع الحمصي الى عمر ، فقال : هو والله متوعّدني، يا أمير المؤمنين . فقال عمر لحارسه كعب بن حامد: اخرج الى رَوْح يا كعب، فإن سلّم إليه حوانيته فذلك ، وإن لم يفعل ، فائتني برأسه . فقام كعب وقد سل من السيف شبراً ، فقال له ، قم فخل له حوانيته ، قال : نعم نعم (١)

ومثال آخر أغرب مما سبق : بينما عمر يسير يوماً في سوق حمص ، قام إليه رجل عليه بردان قطريان ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أمرت من كان مظلوماً أن يأتيك ؟ قال : نعم ، قال : فقد أتاك مظلوم بعيد الدار . فقال له عمر : وأين أهلك ؟ قال : بعدن أبين ، قال عمر ، والله إن أهلك من أهل عمر لبعيد ، فنزل عن دابته في موضعه ، فقال : ما ظلامتك؟ قال : ضيعة لي وثب عليها واثب ، فانتزعها مني .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٦٠ .

فكتب الى عروة بن محمد يأمره أن يسمع من بينته ، فإن ثبت له حق دفعه إليه ، وختم كتابه . فلما أراد الرجل القيام ، قال له عمر : على رسلك ، إنك قد أتيتنا من بلد بعيد ، فكم نفد لك زاد ، أو نفقت لك راحلة ، وأخلق لك ثوب ؟ فحسب ذلك ، فبلغ أحد عشر ديناراً ، فدفعها عمر إليه (١)

وتكرر ذلك مع رجل قدم عليه من البصرة ، رد عليه أرضه التي هي خير من مائة ألف ، وأمر له بنفقات سفره التي قدرها بستين درهماً ، فاستغرب الرجل ، فقال له عمر : إنما رددت عليك حقك (٢)

وكتب عمر الى العمال يأمرهم جميعاً برد المظالم دون تردد ، فقال : من عبد الله أمير المؤمنين الى العمال :

أما بعد ، فإني كنت كتبت إليكم برد المظالم ، ثم كتبت إليكم أن تحبسوها ، ثم كتبت إليكم بردّها ، فاطلعت من بعض أهلها على خيانات وشهود زور ، حتى قبضت أموالاً قد كنت رددتها ، ثم رأيت أن أردها على سوء ظن بأهلها ، أحب إلي أن أحبسها حتى ينجلي الأمر من غد على ما ينجلي عنه ، فإذا جاءك كتابي هذا فارددها على أهلها ، والسلام (٣) .

قال عمر بن ذر : لم تكن همة عمر بن عبد العزيز إلا رد المظالم والقسم في الناس (٤) .

وقال شيخ من أهل الشام : لما استخلف عمر بن عبد العزيز مكث شهرين مقبلاً على بثه وحزنه ، لما ابتلي به من أمور الناس ، ثم أخذ في النظر في أمورهم ،

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٨٠
(٢) ابن عبد الحكم : ص ١٤٦ ـ ١٤٧
(٣) ابن عبد الحكم : ص ٩١ ومابعدها
(٤) الخراج لأبي يوسف : ص ١٦

ورد المظالم الى أهلها ، حتى كان همه بالناس أشد من همه بأمر نفسه ، فعمل بذلك ، حتى انقضى أجله رحمه الله تعالى[1] .

وعلى هذا النهج تتابع الناس في رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها ، سواء أكانت في يده أم في يد غيره ، حتى أخذ أموال بني مروان وغيرهم ، مما كان في أيديهم بغير استحقاق .

٧ ـ إعلانه الجوائز لمن يدله على الخير :

الحقيقة مُرّة ، لا يتقبلها ولا يصغي إليها غير أولي العقل الراجح ، والقلب الكبير ، والدين القوي المسيطر على النفس ، والإخلاص التام ، وهكذا كان الشأن بعمر مع الناس ، تراه يصغي للحق ، ويتقبل الموعظة الحسنة ، بل إنه كان يعلن الجوائز لمن يدله على الخير ، فكتب الى أهل المواسم .

أما بعد ، فأيما رجلٍ قدم علينا في رد مَظْلمة ، أو أمر يُصلح الله به خاصاً أو عامًّا من أمر الدين ، فله ما بين مائة دينار الى ثلاثمائة دينار ، بقدر مايرى من الحسبة ، وبعد الشُّقَّة ، رحم الله امرأً لم يتكاءده[2] بُعْد سفر ، لعل الله يحيي به حقاً ، أو يميت به باطلاً ، أو يفتح به من ورائه خيراً .

ولولا أني أطيل عليكم ، وأطنب ، فيشغلكم ذلك عن مناسككم ، لسُمْتُ أموراً من الحق أظهرها الله ، وأموراً من الباطل أماتها الله ، وكان الله هو المتوحد لكم في ذلك لا تجدون غيره ، فإنه لو وَكلني الى نفسي ، لكنت كغيري ، والسلام[3] .

---

(١) الخراج ، المرجع السابق
(٢) اي لم يشتد به سفر
(٣) ابن عبد الحكم : ص ١٣٧

وفي أول خطبة خطبها عمر بعد أن تولى الخلافة ، حدد موازين صحبة الناس له ، وحصرها في خمسة أمور ، فقال :

أيها الناس ، من صحبنا فليصحبنا بخمس ، وإلا فليفارقنا ، يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على مالانهتدي إليه ، ولا يغتابن عندنا أحداً ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه [1] .

هذه الموازين أدت إلى أن انقشع عنه الشعراء والخطباء ، وثبت معه الفقهاء والزهاد ، على نقيض حالهم مع بقية الخلفاء الأمويين ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف فعله قوله .

وقد أدى هذا الانفتاح على العلماء الى أن أخلصوا له النصح ، وتفاعلوا مع رغباته وتطلعاته ، وحرصوا على إرشاده الى أفضل الطرق وأقوم السبل . ومن قصصهم معه أنه لما ولي (أي عمر) بعث إلى محمد بن كعب، ورجاء بن حيوة، وسالم بن عبدالله ، فقال لهم : قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بي ، فما عندكم ؟

فقال محمد بن كعب : اجعل الشيخ أباً ، والشاب أخاً ، والصغير ولداً ، وبر أباك ، وصل أخاك ، وتعطف على ولدك .

وقال رجاء : ارض للناس ما ترضى لنفسك ، وما كرهت أن يؤتى إليك ، فلا تأته إليهم ، واعلم أنك أول خليفة تموت .

وقال سالم : اجعل الأمر واحداً ، وصم فيه عن شهوات الدنيا ، واجعل آخر فطرك فيه الموت ، فكأن قد [2] ، فقال عمر : لاحول ولا قوة إلا بالله [3] .

---

(١) البداية والنهاية : ٩/١٩٨ .

(٢) قد يحذف الفعل بعد قد الحرفية لدليل ، أي وكأن أفطرت .

(٣) البداية والنهاية : ٩/١٩٨ ، حلية الأولياء : ٥/٣٢٧

ولكن عمر لم يقسُ على الناس ، وإنما لان لهم ، ورغّبهم وأغراهم حتى بالمال ، فقال[1] : ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق ، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً .

٨ ـ علاقته بأسرته بني أمية :

إن الأطماع البشرية تقوى ، وتزداد بين أبناء الأسرة الواحدة ، حينما يكون لواحد منهم سلطة ونفوذ ، وحكم وجاه ، فيقبل عليه الأقارب ، طمعاً في أحد أمور ثلاثة : إما المنصب والولاية ، وإما تحقيق المصالح ، وإما الحصول على المال والثروة .

هذا هو الشأن الغالب ، والأمر المرتقب ، والأمل المرجى المنتظر ، ولا يفلت من هذا العرف المعتاد ، أو الحال الشائعة إلا قلّة نادرة من ذوي العزم والحزم وصلابة الموقف ، وخشية الله تعالى ، وبُعْد النظر الى المستقبل ، وتجنب الطعن أو توجيه النقد الجارح من باقي الناس .

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله كشأنه كله في تغليب الآخرة على الدنيا ، والباقية على الفانية ، وتطبيق العدل ميزاناً دقيقاً بين كل الناس ، من هؤلاء القِلَّة النادرة الذين لم يدعوا مجالاً لتقريب القريب ، وإدناء الأهل ، فعامل بني أمية معاملة غيرهم من الناس ، مما أسخطهم ، وأثار حقدهم فتآمروا عليه ، حتى قتلوه في النهاية بدس السم في طعامه ، لما شدد عليهم ، وانتزع كثيراً مما في أيديهم[2] .

يبدو لنا ذلك من مواقفه الحازمة معهم ، ومنها :

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٩٠

(٢) فوات الوفيات : ٢/ ٢٠٨ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٦

أ ـ طلب المنصب :

لم يكن عمر يفرق في توليه الوظائف بين الأقارب والأباعد ، وله مع أقاربه موقف واضح صريح ، بدليل قول الأوزاعي السابق وهو : إن عمر بن عبد العزيز كان جالساً في بيته ، وعنده أشراف بني أمية ، فقال : أتحبون أن أوليٌ كل رجل منكم جنداً؟ فقال رجل منهم: لم تعرض علينا ما لا تفعله؟ قال : ترون بساطي هذا ؟ إني لأعلم أنه يصير إلى بلىً وفناء ، وإني أكره أن تدنسوه بأرجلكم ، فكيف أوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم ؟ هيهات لكم هيهات ! فقالوا له : لِمَ ؟ أما لنا قرابة ؟ أما لنا حق ؟ قال : ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندي في هذا الأمر إلا سواء ، إلا رجلاً من المسلمين حبَسه عني طول شقته[1] .

ب ـ نزع الأموال التي كانت في أيديهم بغير حق :

لما أقبل عمر على رد المظالم ، وقطع عن بني أمية جوائزهم وأرزاق أحراسهم ، ورد ضياعهم الى الخراج ، وأبطل قطائعهم ، فأفقرهم ، ضجّوا من ذلك ، فاجتمعوا إليه ،فقالوا : إنك قد أحييت بيت مال المسلمين ، وأفقرت بني أبيك ، فيا تردّ من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك قبلك ، فدعهم وما كان منهم ، واشتغل أنت وشأنك ، واعمل بما رأيت .

ـ قال لهم : هذا رأيكم ؟ قالوا : نعم ، قال : ولكني لا أرى ذلك ، والله لوددت ألا تبقى في الأرض مَظْلمة إلا رددتها ، على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد ألمه ، ثم يعود كما كان حياً ، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها ، سالت نفسي عندها[2] . وهنا بدأت مواقف تتردد بين الشدة تارة والوساطة تارة اخرى .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٦ ، والشُّقّة : السفر البعيد .

(٢) ابن عبد الحكم : ص ١٤٧ ـ ١٤٨

ـ فخرجوا من عنده ، وذهبوا الى عمر بن الوليد ، وكان كبيرهم وشيخهم ، فطلبوا أن يكتب الى عمر يوبخه ، لعله أن يرده عن مساءتهم ، فرد عليه عمر بكتاب أقوى حجة ، وأنفذ رأياً ، أوضح فيه أيلولة هذه الأموال الى قرابته بغير حق ، فيكون الرجوع الى الحق خيراً من التمادي في الباطل ، وأقرب الى النجاة يوم الله ، وإقامة بني أمية على المحجة البيضاء، وأن المسلمين جميعاً في هذه الأموال سواء [1].

ثم استغاثوا بكل واحد من أعيان الناس ، فلم يفدهم ذلك شيئاً ، حتى أتوا عمتهم فاطمة بنت مروان، وكانت عمة عمر أيضاً، فشكوا إليها ما لقوا من عمر ، وأنه قد أخذ أموالهم ، ويُستنقصون عنده ، وأنه لا يرفع بهم رأساً ، وكانت هذه المرأة لاتحجب عن الخلفاء، ولا ترد لها حاجة ، وكانوا يكرمونها ويعظمونها، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل الخلافة ، وقامت فركبت إليه ، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها ؛ لأنها أخت أبيه ، وألقى لها وسادة ، وشرع يحادثها ، فرآها غضبى وهي على غير العادة ، فقال لها عمر :

ـ ياعمة ، مالكِ ؟ فقالت : بنو أخي عبد الملك وأولادهم يهانون في زمانك وولايتك ؟ وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم ، ويسبّون عندك فلا تنكر ؟

فضحك عمر وعلم أنها متحملة ، وأن عقلها قد كبر ، ثم شرع يحادثها والغضب لايتحيز عنها ، فلما رأى ذلك ، أخذ معها في الجد ، فقال :

ـ ياعمة ! اعلمي أن النبي ﷺ مات وترك الناس على نهر مورود ، فولي ذلك النهر بعده رجل ، فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولي ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر ، فلم يستنقص منه شيئاً حتى مات ، ثم ولي ذلك النهر رجل آخر ، فكرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرة فيه .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٤٩ ـ ١٥١

ـ وأيم الله ، لئن أبقاني الله لأردنّه الى مجراه الأول ، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط ، وإذا كان الظلم من الأقارب الذين هم بطانة الوالي ، والوالي لايزيل ذلك ، فكيف يستطيع أن يزيل ماهو ناءٍ عنه في غيرهم ؟

ـ فقالت : فلا يسبوا عندك ؟ قال : ومن يسبهم ؟ إنما يرفع الرجل مظلمته ، فآخذ له بها [1] . وهكذا تلاشت معارضة بني أمية ، وايسوا من الامتيازات التي حلموا بها ، وقالوا : «ليس بعد هذا شيء»[2] .

ودخلت أم عمر بنت مروان عمة أخرى لعمر على عمر فقالت : حكم الله بيننا وبينك ، قطعت أنت عنا أشياء كان يُجريها غيرك علينا ، قال : ياعمة ، لولا ذلك الحكم لكنت أوصلَهم لك [3] .

ج ـ إعطاؤهم وندمه على العطاء والتزام مبدأ المساواة :

بعث عمر بسبب الإلحاح الشديد الى بني أمية ، وهم جلوس على الباب ، وفيهم يزيد بن عبد الملك ولي العهد من بعد عمر نفسه ، لكل واحد منهم بعشرة دنانير ، فغضبوا وسخطوا المبلغ ، فقام عنبسة بن سعيد بسفارة بين عمر وبين يزيد ، فقال عنبسة لعمر :

ـ إن بني أبيك بالباب يعتبون عليك في عشرة دنانير التي بعثها الى كل واحد منهم ، وكلموني في كلامك أن أخبرك أنهم سخطوها . وقال يزيد : كأنه يظن أني لا أكون من بعده ؟

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٢١٣ ـ ٢١٤ ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٧٣

(٢) ابن عبد الحكم : ص ٥٩

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٣

ـ فقال عمر : فأقرئهم مني السلام ، وقل لهم : إن عمر يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : أقسم بالله الذي لا إله إلا هو ، مازلت هذه الليلة الماضية ساهراً ، أناجي الله وأستغفره منها ، حيث أعطيتكموها دون المسلمين .

ـ فلا والله العظيم لا أعطيكم درهماً إلا أن يأخذ جميع المسلمين .

ـ وأما أنت يا يزيد، فأناشدك الله الذي لا إله إلا هو ، لو خلعت نفسي ، وخلعني المسلمون ، ووليت ، هل كنت فاعلاً بي إلا دون ما فعلت بنفسي؟ إذا وَليت الأمور فشأنك بها .

فخرج عنبسة، فقال : أنتم فعلتم بأنفسكم ، تزوجتم إلى عمر بن الخطاب بنت عاصم ، فجئتم بمثل عمر ، فأخبرهم الخبر .

وقال : من كان له منكم يا بني عمي ضيعة ، فليُقم فيها يصلحها [1] .

وفي رواية أخرى : قال عمر لبني مروان :

ـ لتدعُنّي ، وإلا ذهبت الى مكة ، فنزلت عن هذا الأمر لأحقِّ الناس به . فصمتوا ، فالتفت إليهم وقال :

ـ والله لو اقمت فيكم خمسين سنة ، ما أقمت فيكم إلا ما أريد من العدل .

د ـ ظلمهم وطردهم من مجلسه :

قال عمر بن عبد العزيز لحاجبه : لايدخلن علي اليوم إلا مرواني ، فلما اجتمعوا عنده حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٦٤ ـ ١٦٥

ـ يابني مروان ، إنكم قد أعطيتم حظاً وشرفاً وأموالاً ، إني لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثها في أيديكم .

فسكتوا ، فقال عمر :

ـ ألا تجيبوني ؟ فقال رجل من القوم : والله لايكون ذلك حتى يحال بين رؤوسنا وأجسادنا ، والله لا نكفر آباءنا ولا نفقر أبناءنا .

ـ فقال عمر : والله لولا أن تستعينوا علي بمن أطلب هذا الحق له ، لأصعرت خدودكم ، قوموا عني [1]

هـ ـ رفضه تنفيذ أمر الخليفة السابق :

لما قام عمر يرد المظالم والقطائع، كان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص بعشرين ألف دينار ، فدارت في الدواوين حتى انتهت الى ديوان الختم، فلم يبق إلا قبضها، فتوفي سليمان قبل أن يقبضها ، فغدا عنبسة يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فعرض عليه الأمر مستنجزاً تنفيذ أمر أمير المؤمنين . فقال له عمر : عشرون ألف دينار تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها الى رجل واحد ؟ والله مالي إلى ذلك من سبيل ! [2] .

هذه نهاية الطامعين، فبمقدار ما انخفض شأن بني أمية، لتعرية عمر لهم عن أطماعهم، بمقدار ما ارتفع ذكر عمر بن عبد العزيز ، وأصبح مع الخالدين الذين ضربوا المثل الأعلى في رد المظالم، ومراقبة بيت المال وحفظ موارده، وإنفاقه في المصالح العامة. وحق لنا أن نفخر بسيرة هذا الخليفة الشاب، كما فاخر به المتقدمون، قال الإمام الباقر محمد بن علي بن الحسين عن عمر بن عبد العزيز:

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٧٣ ، العقد الفريد : ٤/ ٤٣٧

(٢) ابن عبد الحكم : ص ٥٨

ـ أما علمت أن لكل قوم نجيبة ، وأن نجيب بني أمية عمر بن عبد العزيز ، وأنه يبعث يوم القيامة أمة وحده [1]. ورحم الله الإمام أحمد إذ قال عن عمر : ما كان أشده على بني أمية [2] .

٩ ـ فتح أبوابه للناس :

كان عمر حريصاً على أن يأخذ العدل مجراه في كل أحواله وأوضاعه ، وفي كل البلاد والأمصار ، ففتح أبوابه للناس لرفع شكاويهم وظلاماتهم ، وأمر الولاة والعمال بذلك . خطب خطبة تضمنت إباحة دخول المظلومين عليه بغير إذن ، فقال :

ـ يا أيها الناس ، الحقوا ببلادكم ، فإني أنساكم عندي ، وأذكركم ببلادكم ، ألا وإني قد استعملت عليكم رجالاً لا أقول : هم خياركم ، ولكنهم خير ممن هو شر منهم .

ـ ألا فمن ظلمه إمامه مَظْلمة ، فلا إذْنَ له علي ، ومن لا ، فلا أرينَّه . ألا وإني منعت نفسي وأهل بيتي هذا المال ، فإن ضننت به عنكم إني إذن لضنين ، والله لولا أن أنْعَشَ سنة ، أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فواقاً [3]

ومن وقائع التظلم : أن رجلاً شكى الى عمر بن عبد العزيز صنع واليه على مكة : عروة بن عياض بن عدي ، فقال : أصلح الله أمير المؤمنين ، ظُلمت ، ولا أستطيع أن أتكلم .

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٤

(٢) ابن الجوزي : ص ١٢٠

(٣) ابن عبد الحكم : ص ٤٢ ومابعدها ، البداية والنهاية : ٥/ ٢٩٣

obeikandl.com

فقال عمر : ويحه ، أخذت عليه يميناً ، ثم قال : إن كنت صادقاً فتكلم ، فقال : أصلحك الله ، هذا ـ وأشار الى عروة ـ سامني بمال لي ، وأعطاني به ستة آلاف درهم ، فأبيت أن أبيعه ، فاستعداه علي غريم لي ، فحبسني ، فلم يخرجني حتى بعته مالي بثلاثة آلاف درهم ، واستحلفني بالطلاق إن خاصمته أبداً .

فنظر عمر الى عروة ، ثم نكت بالخيزران بين عينيه في سجدته ، وقال : هذه غرتني منك . ثم قال للرجل :

اذهب فقد رددت عليك مالك ، ولا حنْث عليك (١) .

وتكرر مثل هذه الواقعة بالتظلم من أهل بيته ، وإدالتهم (غلبتهم) ، ورد المال المغتصب لأصاحبه ، مع تألمه وقوله : «إن هذا لهو البلاء المبين»(٢) .

ومن الوقائع أيضاً: ما قاله القاسم بن مخيمرة : دخلت على عمر بن عبد العزيز ، وفي صدري حديث يتجلجل فيه ، أريد أن أقذفه إليه ، فقلت له : بلغنا أنه من ولي على الناس سلطاناً ، فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم ، احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه .

فقال عمر : ما تقول ؟ ثم أطرق طويلاً ، ثم برز عمر للناس (٣)

هذه هي السنة النبوية بالبروز للناس دون حراس ولا حجاب ، وأعاد عمر للسنة مجدها ، وفعل ما ينبغي على الوالي العادل فعله ، فلا يخشى أحداً ولا يهاب أحداً ما دام قائماً بالعدل .

١٠ ـ الرفق بالرعية والإحسان إليهم والظفر بمحبتهم :

غمرت الرحمة قلب عمر ، فرفق بالناس ، وأحس بآلامهم ، وتألفهم ، وأدرك ما يعانيه الفقراء والمحتاجون، وما يؤدي إليه الفقرمن آفات ومشكلات

---

(١) المرجع السابق : ص ١٣٤

(٢) المرجع السابق : ص ٦٣

(٣) حلية الأولياء : ٥/٣١٦

obeikandl.com

اجتماعية ، فحرص على تحقيق الرفاه الاجتماعي للجميع ، فلم يمر على الناس زمن قضي فيه على الفقر مثل زمن عمر . وحرص أيضاً على تحقيق اطمئنان النـاس ، فكان يرى أن عيون الحكام لن تقر الا في «استفاضة الأمن في البلاد ، وظهور مودة الرعية لهم ، وحسن ثنائهم عليهم» .

كتب مطرف إليه : «أما بعد ، فإن الدنيا دار عقوبة ، لها يجمع من لاعقل له ، وبها يغتر من لاعلم له ، فكن بها كالمداوي جرحه ، واصبر على شدة الدواء لما تخاف من عاقبة الداء»

بدأ عمر بنفسه وأهله يعيش عيشة الكفاف والقناعة، وكان يقول: ما تركت شيئاً من الدنيا إلا عوضني الله ما هو خير منه. ثم أخذ عمر ينظر بمعونة ذوي العاهات ، فكان يبعث لكل أعمى غلاماً يخدمه ، ولكل مُقْعدين ومريضين زَمِنين غلاماً يخدمها . وأمر صاحب ديوان دمشق أن يخصص للمرضى والعاجزين مخصصات دائمة وحقوقاً واجبة ، لا صدقات ، فقال له : «إذا أتاك كتابي هذا فلا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم ، فإني لا أحب ذلك» [1]

وراح مناديه ينادي :

ـ أين الغارمون ؟ أين الناسكون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ [2] فكان هؤلاء يدخلون عليه ، فيعطيهم من بيت المال حتى أغناهم .

وكتب الى عماله : أن اقضوا عن الغارمين . فكتب اليه : إنا نجد الرجل له المسكن والخادم وله الفرس وله الأثاث في بيته . فكتب عمر : لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرسٍ يجاهد عليه عدوّه ، وأثاث في بيته ، ومع ذلك فهو غارم ، فاقضوا عنه ما عليه من الدين [3]

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٥٦ ـ ٥٧ ، طبقات ابن سعد : ٥/ ٢٨١

(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٠

(٣) ابن عبد الحكم : ص ١٦٤

وكان عمر يؤثر راحة الرعية على كل شيء ، خرج يوماً في ولايته الخلافة بالشام ، فركب هو ومزاحم ـ وكان كثيراً ما يركب ، فيلقى الركبان يتجسس الأخبار عن القرى ـ فلقيهما راكب من أهل المدينة ، وسألاه عن الناس وما وراءه ، وهو الأمر الذي خرجا من أجله فقال لهما : إن جمعت لكما خبري ، وإن شئتما بعضته تبعيضاً ، فقالا : بل اجمعه ، فقال : إني تركت المدينة ، والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور ، والغني موفور ، والعائل مجبور .

فسُرَّ بذلك عمر ، وقال : والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحبّ إلي مما طلعت عليه الشمس [1] . وتكرر هذا السؤال من عمر لرباحَ بن عبيدة عن أهل العراق ، وسيرة الولاة فيهم ، فأخبره بكل خير عنهم ، فقال : «الحمد لله على ذلك ، لو أخبرتني عنهم بغير هذا عزلتهم ، ولم أستعن بهم بعدها أبداً ، إن الراعي مسؤول عن رعيته . . .» [2] .

وكتب عمر إلى عماله كتاباً يقرأ على الناس ، مضمونه رفعه الضرائب المجحفة عن الناس ، فيحمدوا الله عز وجل ، وطلب الى عامله عبدالله بن عون على فلسطين بهدم بيت المكس[3] . وطلب الى العمال كافة التزام الحق والعدل والمرونة واللين في جباية الزكاة والخراج والجزية .

وكتب أيضاً الى عامله ميمون بن مهران : إذا جاءك كتاب مني على غير الحق ؛ فاضرب به الأرض [4] .

وقد أثمرت سياسته بإغناء الناس أطيب الثمار ، وحققت رفاهاً اجتماعياً فشاعت السعادة والطمأنينة ، وتخلص الناس من كل مظاهر الاستغلال والظلم ، قال

---

(١) المرجع السابق : ص ١٣١
(٢) الخراج لأبي يوسف : ص ١١٩
(٣) ابن عبد الحكم : ص ١٦٠ ، الخراج لأبي يوسف : ص ٨٦ ، حلية الأولياء : ٥/ ٣٠٦
(٤) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠١

عمر بن أسيد : والله ما مات عمر حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون ، فما يبرح حتى يرجع بماله كله ، قد أغنى عمر الناس[1] .

وسبق ذكر ما قاله يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات أفريقية ، فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقاباً ، فأعتقتهم ، وولاؤهم للمسلمين [2] .

وأبطل عمر مغارم كثيرة استحدثت في عهد الحجاج بن يوسف، يتبين ذلك من كتابه إلى أمير العراق:

ـ «أما بعد ، فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وإن قوام الدين العدل والإحسان ، فلا يكون شيء أهم إليك من نفسك ، فلا تحملها قليلاً من الإثم ، ولا تحمل خراباً على عامر ، وخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ، ولا تأخذن أجور الضرابين ، ولا هدية النوروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الفيوج (الرسل) ولا أجور البيوت ، ولا دراهم النكاح . ولا خراج على من أسلم من أهل الذمة ، فاتبع في ذلك أمري ، فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله»[3] .

ـ ومما ساعد عمر على نجاحه في سياسته الاقتصادية هو الاقتصاد في النفقة ، والبعد عن البذخ والإسراف ، فكان ينصح الولاة بالتورع والتقشف في أموال المسلمين ، لا ينفقون منها إلا بالقدر الضروري اللازم ، وأن يكونوا أشحة على

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٥ ، ابن عبد الحكم : ص ١٢٤ ـ ١٢٥

(٢) ابن عبد الحكم : ص ٦٩ ـ ١٢٤.

(٣) الطبري : ٥/ ٣٢١ ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٨٦

أنفسهم ، أسخياء على المسلمين ، كتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم واليه على المدينة الذي حج بالناس سنة مائة هجرية :

ـ أما بعد، فقد قرأت كتابك الذي كتبته الى سليمان ، وكنتُ المبتلى بالنظر فيه، كتبت تسأله أن يقطع لك شيئاً من القراطيس مثل الذي كان يقطع لمن كان قبلك، وتذكر أن التي قبلك قد نفدت ، وقد قطعت لك دون ما كان يقطع لمن كان قبلك ، فأدق قلمك ، وقارب بين أسطرك ، واجمع حوائجك ، فإني أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالاينتفعون به ، والسلام [1]

ـ ولم ينس عمر سد بعض المنافذ التي تؤدي إلى الغنى غير المشروع ، فمنع عماله من مزاولة أي نشاط تجاري ، وقال : «لايحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو عليه ، فإن الأمير متى يتجر يستأثر ويصب أموراً فيها عَنَت ، وإن حرص على ألا يفعل» [2] وكذلك منع عماله من قبول الهدايا ؛ لأنها رشوة ، وألغى هدايا أعياد النيروز والمهرجان الفارسية ، منعاً من استغلال المنصب لمصلحة شخصية .

ولم يوزع عمر المال على جميع الناس ، فضنَّ به إلا على الفقراء والمحتاجين ، فقال لعنبسة بن سعيد ـ وكان قد سأله حاجة ـ:

ـ ياعنبسة، إن كان مالك الذي أصبح عندك حلالاً فهو كافيك، وإن كان حراماً فلا تزيدن إليه حراماً ، ألا تخبرني أمحتاج أنت ؟ قال : لا ، قال : أفعليك دين ؟ قال : لا ، قال : أفتأمرني أن أعْمِد الى مال الله ، فأعطيكه من غير حاجة بك إليه ، وأدعَ فقراء المسلمين ، لو كنت غارماً أديت غُرمك ، أو محتاجاً أمرت لك بما يصلحك ، فعليك بمالك الذي عندك فكُله واتق الله ، وانظر أولاً من أين جمعته ، وانظر لنفسك قبل أن ينظر إليك من ليس لك عنده هَوادة ولا مراجعة [3] .

---

(١) حلية الأولياء : ٥/٣٠٨

(٢) ابن عبد الحكم : ص ٩٩

(٣) ابن عبد الحكم : ص ١٥٤ ـ ١٥٥

وهكذا ساد في الناس اجتهاد عمر ورأيه في معاملة الناس ، مسترشداً بروح الإسلام ، وهو منهاج المساواة بين النـاس ، في حدود الاحتياجـات والضرورات والإمكانات ، لافرق في ذلك بين عربي ومولى ، مسلم أو غير مسلم ، حاكم أو محكوم ، مرواني أوغيره ، خطب الناس في خُنَاصرة [1] مؤكداً مبدأ المساواة هذا ، فقال :

«أيها الناس . . وما يبلغنا أحد منكم حاجته ، يسعها ما عندنا ، إلا سددنا من حاجته ما قدرنا عليه ، ولا أحد يتسـع له ما عندنـا إلا وددت أنـه بدىء بي وبلحمتي[2] الذين يلونني ، حتى يستوي عيشنا وعيشكم .

وأيم الله لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة [3] ،لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله عز وجل كتاب ناطق ، وسنة عادلة ، دل فيهما على طاعته ، ونهى فيهما عن معصيته» [4] وكانت المساواة كما أشرنا في حدود الحاجة ، بدليل أنه لم يعط الشعـراء المكتسبين بشعرهـم كما كانـوا يفعلـون مع السابقين ، ولما شكى إليه كثيّرعزة (١٠٥هـ) طول إقامة الشعراء ببابه ، قال له : يا كثير، أما سمعت إلى قول الله عز وجل : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين﴾ . . الآية ،أفمن هؤلاء أنت ، ياكثير ؟

وسهل عمر على المسافرين أسفارهم ، فأمر عماله وولاته في الأقـاليم ببنـاء الخانات (الفنادق) لنزول المسافرين فيها ، وخصص لهم إعاشة فيها ، ومعونة تعينه على الوصول إلى البلد الذي يريد [5] .

---

(١) خناصرة : بلد صغير من أعمال حلب ، في محاذاة قنسرين من ناحية البادية

(٢) اللحمة : أهل بيته

(٣) الغضارة : طيب العيش ولينه

(٤) تاريخ الطبري ، الأغاني للأصفهاني : ٩/ ٣٣٨٧

(٥) تاريخ الطبري : ٦/ ٥٦٧

obeikandl.com

ويسر سبيل الزواج وأداء الأمانات ، فكتب عمر إلى عماله : «من كانت عليه أمانة لايقدر على أدائها ، فأعطوه من مال الله ، ومن تزوج امرأة ، فلم يقدر أن يسوق إليها صداقاً فأعطوه من مال الله» [١] .

واهتم بشأن الأسارى ، فأرسل من يفاوض الروم على فدائهم ، وطمأنهم في أسرهم ، وأعطى أنصبتهم في العطاء الى أهليهم وذويهم ، وكتب لهم كتاباً قال فيه :

«أما بعد ، فإنكم تعدون أنفسكم أسارى ، ولستم أسارى ، معاذ الله ! أنتم الحبساء في سبيل الله . . واعلموا أني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهلكم بأوفر ذلك وأطيبه . وقد بعثت إليكم خمسة دنانير ، خمسة دنانير ـ أي لكل أسير ـ ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه عنكم طاغية الروم لزدتكم» [٢] .

وبكلمة موجزة : المال مال الله ، ومال الأمة ، وحق الجماعة ، فيوزع الحق في الجميع ، بالتضامن والتكافل والمساواة بحسب الحاجة ، قال عمر : «أيها الناس . . إنما هو مالكم ، نرده عليكم» [٣] . وقد اغتنى الناس في عهد عمر ، كتب عدي بن أرطاة الى عمر : إنه قد أصاب الناس من الخير خير ، حتى لقد خشيت أن يبطروا . فكتب إليه عمر : إن الله تبارك وتعالى حين أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهلَ النار النار ، رضي من أهل الجنة بأن قالوا : ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ فمُر من قبلك أن يحمدوا الله [٤] .

١١ ـ الشعور المرهف بالتبعة العامة :

كان قلب عمر يطفح بالشعور بالتبعات العامة ، وبالخوف من حساب الله تعالى يوم القيامة عن جميع الرعية ، في البلاد والأمصار المختلفة ، مما حمله على أن

(١) طبقات ابن سعد : ٥/ ٢٧٦
(٢) ابن عبد الحكم ، الأغاني : ٩/ ٣٣٨٥ وما بعدها
(٣) طبقات ابن سعد : ٥/ ٢٥٥
(٤) ابن عبد الحكم : ص ٦٩

يتفقد أحوال الناس ليلاً نهاراً في كل مكان ، كما كان يفعل جده عمر بن الخطاب رضي الله عنهما . دخلت عليه فاطمة زوجته ، وهو في مُصَلَّاه تسيل دموعه على لحيته ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، ألشيء حدث ؟ قال ـ وقد سبق إيراده ـ:

يافاطمة إني تَقَلَّدت من أمر أمة محمد ﷺ أسودها وأحمرها ، فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ؛ فعلمت أن ربي سائلي عنهم يوم القيامة ، فخشيت ألا تثبت لي حجة ، فبكيت [1]

ومن رهبته وخشيته وسؤاله عن الرعية وحب الخير : أنه كان بنفسه ينظر في مظالم الرعية ، ويسأل عن أحوال المدن ، وعن أهل الأمصار ، سؤالاً مفصلاً شاملاً ، يبدو ذلك في نظره في مظالم أهل البصرة ، وفي سؤاله زياد بن أبي زياد المديني حينما قدم عليه عن صلحاء أهل المدينة ورجالهم ونسائهم ، حتى قال زياد : فما ترك منهم أحداً إلا سألني عنه ، وسألني عن أمور كان أمر بها بالمدينة ، فأخبرته [2] .

ومن رقيق إحساسه : أن ابناً صغيراً له خرج يلعب مع الغلمان ، فشجه صبي منهم ، فاحتملوا الصبي الذي شج ابنه ، وجاؤوابه الى عمر ، فخرج إليهم ، فإذا امرأة تقول : إنه ابني وإنه يتيم . فقال لها عمر : هوني عليك .

والتفت إلى الصبي وقال : أله عطاء في الديوان ؟ قالوا : لا ، قال : فاكتبوه في الذرية ، فقالت زوجته فاطمة ؛ أتفعل هذا به وقد شج ابنك ؟ فقال : ويحك إنه يتيم ، وقد أفزعتموه [3]

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠١ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٦
(٢) أخبار عمر للآجري : ص ٦٨
(٣) البداية والنهاية ٩/ ٢٠٢

١٢ - الرفق بالحيوان :

كان عمر بقلبه الرحيم يعطف على الإنسان البائس كما بينا ، والحيوان الضعيف ، على حد سواء ، وله مواقف كثيرة في هذا الصدد (١) : منها أنه كتب إلى صاحب الطرق : أن لا يحملوا أحداً بلجام ثقيل من هذه الرَّسْتَنِّية ، ولا ينخس بمقرعة في أسفلها حديدة .

ومنها : أنه رفض أخذ رطب أرسل به إليه أمير الأردن على دواب البريد .
ومنها : أن غلاماً يعمل له على بغل يأتيه كل يوم بدرهم ، فجاءه يوماً بدرهمين أو بدرهم ونصف ، فقال : ما بدا لك ، فقال : نفقت السوق ، قال : لا ، ولكنك أتعبت البغل ، أرحه ثلاثة أيام .

ومنها : أنه كان ينهى عن ركض الفرس في غير حق .

ومن القصص العجيبة في عهد عمر (٢) : أن الحيوان شعر بأمان في خلافته ، وكف أذاه عن غيره لشبعه، قال موسى بن أعين الراعي - وكان يرعى الغنم لمحمد بن عيينة -: كانت الأسد والغنم والوحش ترعى في خلافة عمر بن عبد العزيز في موضع واحد ، فعرض ذات يوم لشاة منها ذئب ، فقلت :

إنا لله ، ما أرى الرجل الصالح إلا قد هلك . قال : فحسبناه فوجدناه قد هلك في تلك الليلة .

وحدث ميمون الكوفي أبو حمزة القصاب فقال : كنت أحلب الغنم في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فمررت براع ، وفي غنمه نحو من ثلاثين ذئباً ، فحسبتها كلاباً ، ولم أكن رأيت الذئاب قبل ذلك ، فقلت : يا راعي ، ما ترجو بهذه الكلاب كلها ؟ فقال : يا بني ، إنها ليست كلاباً ، إنما هي ذئاب . فقالت : سبحان الله ذئاب في غنم لاتضرها ؟ فقال :

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٥٤ ، ٥٦ ، ١٥٩ ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٦٠
(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٣

يا بني : إذا صلح الرأس ، فليس على الجسد بأس . وكان ذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز (١)

وقال مالك بن دينار ـ وقد سبق ذكره ـ : لما استعمل عمر بن عبد العزيز على الناس ، قال رعاء الشاء : من هذا العبد الصالح الذي قام على الناس ؟ قيل لهم : وما عليكم بذلك ؟ قالوا : إنه إذا قام على الناس خليفة عدل ، كفت الذئاب عن شائنا (٢) .

١٣ ـ رفض الهدايا والتثبت في القضاء :

لم يكن عمر يخشى غير وجه الله تعالى ، فلا يجامل أحداً ، ولا يدع منفذاً لأحد قريب أو بعيد في التأثير على أحكامه وأقضيته ، فكان يرفض قبول الهدية ، فقال له رجل ـ كما بينا سابقاً ـ يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية ، وهذا ـ أي المهدي ـ رجل من أهل بيتك ، فقال :

إن الهدية كانت لرسول الله ﷺ هدية ، فأما نحن فهي لنا رشوة (٣)

ومن أجل التثبت في القضاء ، كان يأمر القضاة والعمال بالاعتماد على البيِّنة في إثبات التهمة ، قال يحيى الغساني ـ وقد ذكر سابقاً ـ: لما ولاّني عمر بن عبد العزيز الموصل ، قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقباً ، فكتبت إليه أعلمه حال البلد وأسأله : آخذ الناس بالظنة ، وأضربهم على التهمة ، أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة ؟ فكتب إليَّ أن آخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق ، فلا أصلحهم الله .

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٥٥

(٢) المرجع السابق ، صفة الصفوة : ٢/ ٦٧

(٣) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٢ ، حلية الأولياء : ٥/ ٢٩٤ ، تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٧

قال يحيى : ففعلت ذلك ، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقة ونقباً (١)

١٤ ـ البطانة الصالحة والإدارة النظيفة :

إن من أسلم وأصح دعائم الحكم استعمال الأكفاء ، واختيار الصلحاء ، وتولية العدول والثقات ؛ لأن بهم يتم تنفيذ الأوامر ، وبهم تساس البلاد ، وهم الذين يعطون من أفعالهم وتصرفاتهم الدليل الساطع على حسن الحكم وإشاعة سمعته الطيبة ، وقد فطن عمر بن عبد العزيز لهذا ، فولى الأخيار ، وأعرض عن الأشرار .

قال المؤرخون : لما ولي عمر الخلافة ، جاءه الشعراء من الحجاز والعراق ، وكان فيمن حضره : نصيب ، وجرير ، والفرزدق ، والأحوص ، وكثيرٌ عزة ، والحجاج القضاعي ، فمكثوا شهراً لا يؤذن لهم ، ولم يكن لعمر فيهم رأي ولا أرب ، وإنما كان رأيه وبطانته ووزراؤه وأهل أربه : القراء والفقهاء ومن وسم عنده بورع ، فكان يبعث إليهم حيث كانوا من بلدانهم (٢) .

وكتب عمر الى عديّ بن أرْطاة : ليكن أمناؤك أوساط الناس ، فهم خيار الناس ، لايَدَعون حقاً ، ولا يكتسبون باطلاً ، لا أنت ولا قارىء مسدَّد ، ولا فاسق مبرز (٣) .

وكان عمر يختبر من يريد توليته : همَّ أن يولي بلالاً بن أبي بُرْدة العراق ، ثم تبين له زيفه وسوءه ، وقال : يا أهل العراق ، إن صاحبكم أعطى مِقْولاً ، ولم يعط معقولاً ، وزادت بلاغته ، ونقصت زهادته .

---

(١) تاريخ الخلفاء : ص ٢٣٧

(٢) حلية الأولياء : ٥/ ٣٢٧ ، البداية والنهاية : ٩/ ١٩٨

(٣) ابن عبد الحكم : ص ١٦٦

وكتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب والي الكوفة :
«أما بعد ، فإن بلالاً غرّنا بالله ، فكدنا نغتر ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله ، والسلام» .

وعلى هذا النحو اختار عمر رجال أجهزة الدولة ، وعين ولاة أقرب الى تحقيق العدل الذي أراده ، وكان الله قد أعان عمر من أهله بسهل أخيه ، وعبد الملك ابنه ، ومزاحم مولاه ، فكانوا أعواناً له على الحق ، وقوة على ماهو فيه (١) .

فكان عامله وواليه على المدينة : أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وقاضيها أبو طوالة . وعلى الكوفة : عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، على الحرب والخراج ، وكاتبه أبو الزناد ، وقاضيها عامر الشعبي .

وعلى البصرة : عدي بن أرطاة ، وقاضيها لفترة من الوقت الحسن البصري ، ثم إياس بن معاوية المزني .

وعلى اليمن : عروة بن محمد بن عطية السعدي .
وعلى الجزيرة : عدي بن عدي الكندي .
وعلى إفريقية : اسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر .
وعلى دمشق : محمد بن سويد الفهري

وعلى خراسان : الجرّاح بن عبدالله الحكمي .
وعلى سمرقند : سليمان بن أبي السري .

يلاحظ من هذا أن عمر كما أحسن اختيار الولاة أحسنَ اختيار القضاة ، أما الولاة فهم من الأكفاء العدول الثقات ، وأما القضاة فهم من كبار العلماء ؛ لأنه كان يعتقد أن القاضي يلي الوالي في الأهمية والمكانة .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٥٢

قال عمر : «إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل : علم ما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم عن الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاورة أهل الرأي» (١)

١٥ ـ محاسبة العمال والولاة وطريق معاملتهم ووضع خطة عملهم :

كان عمر يوسع على عماله في النفقة ، يعطي الرجل منهم في الشهر مائة دينار ، ومائتي دينار ، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية ، تفرغوا لأشغال المسلمين ، فقالوا له : لو أنفقت على عيالك ، كما تنفق على عمالك ؟

قال : لا أمنعهم حقاً لهم ، ولا أعطيهم حق غيرهم (٢) .

وأرسل عمر الى محمد بن كعب القرظي فكتب الى عمر يوصيه بمعاملة الناس بالحسنى ـ وقد ذكر سابقاً ـ: كن لصغير المسلمين أباً ، ولكبيرهم ابناً ، وللمِثْل منهم أخاً ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر أجسامهم ، لا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتتعدى ، فتكون عند الله عز وجل من العادين (٣) .

وكان عمر لايتعجل في تعذيب العمال وعقوبتهم على خيانتهم ، كتب الى عدي بن أرطاة عامله على البصرة : أما بعد ، فقد جاءني كتابك تذكر أن قِبَلك عُمالاً قد ظهرت خيانتهم ، وتسألني أن آذن لك في عذابهم ، كأنك ترى أني لك جُنَّة ـ وقاية ـ من دون الله ، فإذا جاءك كتابي هذا ، فإن قامت عليهم بينة ، فخذهم بذلك ، وإلا فأحلفهم دُبُر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ، ما اختانوا من مال المسلمين شيئاً ، فإن حلفوا فخلِّ سبيلهم ، فإنما هو مال المسلمين ، وليس للشحيح منهم إلا جهد أيمانهم ، ولعمري لأن يَلْقَوا الله بخياناتهم أحبّ إلي من ألقى الله بدمائهم ، والسلام (٤) .

---

(١) البيان والتبيين: ٢/ ٧٥ ومابعدها
(٢) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٣
(٣) أخبار عمر : ص ٦٥
(٤) ابن عبد الحكم : ص ٦٥

ومن مبادىء عمر وهي مبادىء الإسلام : درء الحدود بالشبهات ، قال : ادرءوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة ، فإن الوالي أن أخطأ في العفو خير من أن يتعدى في الظلم والعقوبة[1] .

ومن مبادئه : الرفق بالعمال وبالناس معاً ، كتب إليه الجراح بن عبدالله واليه على خراسان :

إن أهل خراسان قوم ساءت رِعْيتُهم ، وأنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك ، فكتب إليه عمر :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك تذكر أن أهل خراسان قد ساءت رِعْيتُهم ، وأنه لايصلحهم إلا السيف والسوط ، فقد كذبت ، بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم ، والسلام [2].

وكان عمر يراقب الولاة والعمال ويحاسبهم على تقصيرهم ، فيكتب الى أحدهم قائلاً :

«لقد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ! فإما عدلت ، وإما اعتزلت ! والسلام»[3]. وبعث الى خراسان ثلاثة مفتشين يبحثون في ظلامات الناس من نظام خراجها الذي قرره عدي بن أرطاة على الأهالي . وأرسل مفتشاً الى العراق ليأتيه بأخبار الولاة والناس فيها .

وكتب وهب بن منبِّه الى عمر بن عبد العزيز : إني فقدت من بيت مال اليمن دنانير ، فكتب إليه عمر ، أما بعد ، فإني لست أتهم دينك ولا أمانتك ، ولكني أتهم تضييعك وتفريطك ، فاحلف لهم ، والسلام[4] .

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٣١١

(٢) تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٢

(٣) مروج الذهب : ٢/ ١٤٥

(٤) ابن عبد الحكم : ص ٦٩

١٦ ـ عزل الولاة الظالمين ونفي الأشرار :

ليس طبعاً أن يهادن عمر الظلم أو يقر وجوده ، أو يرضى عن مقترفيه ، وهو العادل الراشد الذي يأبى غير الحق أصلاً، وغير العدل ميزاناً ، لذا فإنه عقب توليته ، بادر الى عزل الولاة الظالمين الذين كانوا ولاة في عهد سليمان أو غيره ، بعد أن استشار أهل الرأي والفضل ، إذ لابد لمنهجه الإصلاحي من أعوان خيِّرين ، فأشار عليه طاوس بن كيسان (٢٣ ـ ١٠٦هـ/ ٦٥٣ ـ ٧٢٤م) بما ينبغي فعله ، وقال له : «إن أردت أن يكون عملك خيراً كله ، فاستعمل أهل الخير ..» فأعجب عمر بذلك وقال : «كفى بها موعظة ..»[١] .

فبدأ فور مواراة الخليفة السابق في التراب بعزل الولاة والعمال السابقين ، واختار بدلاً منهم «أصلح من قدر عليه» لوضع العدل في موضع الظلم ، فسلك عماله طريقته ، كما يقول المؤرخون ، وقد ذكرت سابقاً أسماء هؤلاء الولاة الجدد.

ومن أمثلة الولاة المعزولين لجورهم : يزيد بن أبي مسلم ، عزله عن ولاية أفريقية ؛ لأنه كان عامل سوء، يظهر التأله والنفاذ لكل ما أمر به السلطان مما جل أو صغر من السيرة بالجور ، والمخالفة للحق ، وكان في هذا يكثر الذكر والتسبيح ، ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذَّبون ، وهو يقول : سبحان الله والحمد لله ، شُدَّ يا غلام موضع كذا وكذا، لبعض مواضع العذاب ، وهو يقول : لا إله إلا الله والله أكبر ، شُدَّ ياغلام موضع كذا وكذا ، فكانت حالته تلك شرَّ الحالات [٢] .

وعدّد عمر أسماء الولاة الجائرين ، فقال : الوليد بالشام ، والحجاج

---

(١) مروج الذهب : ٢/ ١٤٤

(٢) ابن عبد الحكم : ص ٣٨

بالعراق ، ومحمد بن يوسف باليمن ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، وقرّة بن شريك بمصر ، ويزيد بن أبي مسلم بالمغرب[1] ، امتلأت الأرض والله جوراً[2] .

وأما نفي الأشرار فقد سلك فيه عمر مسلكاً متوسطاً لا إفراط فيه ، ولا يلجأ إليه إلا في حال تفاقم الشر، وازدياد النقمة، وطغيان الشرير ، من ذلك ما فعله في بني أبي عقيل ، فإنه كتب الى واليه عروة بن محمد في اليمن : أما بعد ، فإني بعثت إليك بنفر من آل أبي عقيل ، وبئس القوم كانوا في الجاهلية والإسلام ، وكان أفضلهم في أنفسهم شرَّ خلق الله ديناً ونفساً ، وأنا أرجو أن يجعل الله فيهم خلافاً لا يزداد ، ما كرهوا من ذلك إلا لزوماً ، وأن يظعنوا الى شر ما ظَعَن إليه أهل موت . فإذا أتاك كتابي هذا فأنزلهم من نواحي أرضك بشرها لهم ، بقدر هوانهم على الله عز وجل ، والسلام[3] .

هذا منهج عمر في إصلاح الرأس والقاعدة من المجتمع ، فالناس تبع لقوادهم ، وإذا صلح الرأس صلح الجسد ، فإن شذ أحد من أبناء المجتمع ، ولم يعد أمل في صلاحه ، استحق العقاب والطرد والنفي والتهجير ، لتأمن الجماعة شره ، وتستريح من أذاه .

١٧ ـ موقفه من الفرق الإسلامية :

شهدت بداية الحكم الأموي في الشام ومايتبعها من بلاد الإسلام ظهور فرقتين لهما شأن وخطر ، أولاهما ـ الشيعة : الذين شايعوا علي بن أبي طالب وأحبوه ورأوه أحق بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، وثانيهما ـ

---

(١) يلاحظ أن يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج ولاه أفريقية يزيد بن عبد الملك (المتوفى سنة ١٠٥هـ) فعامل أهلها البربر بالشدة والقسوة ، فثاروا عليه وخلعوه وولوا مكانه آخر ، وكتبوا ذلك إلى الخليفة فوافقهم على ذلك . فتكون رواية ابن عبد الحكم بعزل عمر له محل نظر .

(٢) ابن عبد الحكم : ص ١٦٥ ـ ١٦٦

(٣) المرجع السابق : ص ١٢٤

الخوارج : وهم أعداء جماعة المسلمين عامة ، سواء أكانوا من بني أمية أم من الشيعة ، فاستحلوا دماء مخالفيهم ورأوهم مارقين من الدين ، وهم على باطل في الواقع .

وكانت معارك وحروب دامت سنين بين الأمويين والخوارج ، وظل الشيعة يحسون بمرارة الألم مما لحق آل علي من قتل وتشريد في الآفاق ، وبخاصة مقتل الحسين ومن معه على يد عبيدالله بن زياد في فاجعة كربلاء سنة ٦١ هـ ، ولم يكف مرور الزمن على اندمال الجروح العميقة ، ودفن الآلام والأحقاد المتمكنة في لقلوب .

ونقم العلماء والناس قاطبة من قتل بعض الصحابة والتابعين على يد عقبة بن مسلم في وقعة الحَرَّة في المدينة سنة ٦٣ هـ ، وضج الناس من سفك الدماء في العراق وقتل عبدالله بن الزبير وسعيد بن جبير وغيرهم من أعلام المسلمين على يد الحجاج الثقفي ، في خلافة عبدالملك بن مروان .

ففكر عمر بن عبد العزيز في أحوال الناس وتمزقهم وتفرقهم على هذا النحو ، فلم يجد سبيلاً لإعادة الاتحاد الإسلامي بغير الطريق الذي وحد الله به العرب ، وهو صيحة الايمان الخالص ، والتزام العمل بالكتاب والسنة واتباع المسالمة وعدم اللجوء الى العنف والشدة ، خلافاً لما اتبعه عمه عبد الملك من قبل ، وإحياء الشعور بأخوة المؤمنين ، دون تفرقة بينهم ، فلا شيعة ولا خوارج ، ولا هاشمي ولا أموي ، وإنما الكل سواء في ظل الإسلام وشعاره القائم على نبذ الفروق والامتيازات العائلية ، ودستورهم القرآن والسنة ، وقدوتهم سيرة الراشدين .

أعلن عمر منهاجه وسياسته صراحة منذ أول يوم ولي فيه الخلافة ، فقال :

«أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم نبي ، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال الى يوم القيام ، وما حرم على لسان نبيه فهو حرام الى يوم القيامة» .

فكان من آثار هذه السياسة المعتدلة لعمر أن أحبه الهاشميون [1] وتعلق به آل علي ومدحه شعراء الشيعة ، واقترب منه ثوار الخوارج ووثقوا به وهادنوه ، وأثنى عليه المعتزلة الذين كانوا يرفضون توارث الخلافة عن طريق ولاية العهد ، ورضي عنه الفقهاء من أهل السنة ، وأحبه العبّاد ، واعتبرته كل طائفة من هؤلاء نصيراً لهم ، أو واحداً منهم ، أو من أئمتهم ، أو على مذهبهم وطريقتهم ، حتى إنه نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبر عمر بن عبد العزيز الذي ظل محترماً يغشاه كثير من الناس ، كما ذكر المسعودي .

وقد ساعد عمر على نجاحه مع هذه الفرق الإسلامية ثقافته الواسعة ، التي تلقاها في المدينة ، والتزامه الكتاب والسنة نصاً وروحاً ، ومقدرته في الجدل والنقاش ، وشدة العارضة . وقد اتضح أثر ذلك في مجادلة الخوارج الذين كانوا يرسلون إليه أساطينهم في الجدال والمناظرة ، فكان عمر يفند حججهم ، ويدحض أقوالهم ، ويفحمهم ويردهم الى جادة الحق والصواب [2]، ملتزماً في ذلك قول الله تعالى : ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ علماً بأن عمر لم يكن يرى قتل الخوارج ، وصرح برأيه ذلك أمام الوليد وسليمان ولدي عبد الملك ، كما بينا [3] .

وقد أرسل عمر أيضاً كتباً تفند مزاعم الخوارج ، مذكراً لهم بقوله تعالى : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال : إنني من المسلمين﴾ ومبيناً لهم وجوب العدول عن مبدئهم ، إذ لا حجة لهم في استحلال الدم الحرام ، وإصابة المال الحرام ، وأنه يلزمهم ابتغاء وجه الله والدار الآخرة في أعمالهم ، فإن الله تعالى يقول : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[4] .

---

(١) هم آل العباس

(٢) حلية الأولياء : ٥/ ٣٠٩ ـ ٣١٠

(٣) تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٠ ، ابن عبد الحكم : ص ١٣١ ـ ١٣٢ ، ١٣٤ ومابعدها

(٤) المرجع السابق ، ابن عبد الحكم : ص ٨٣ ـ ٨٤

وكتب عمر أيضاً للخوارج يوصيهم بتقوى الله ، والدعـوة الى الله ، وإلى الإسلام ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يدعوا إهراق الدماء بغير حق [١] .

وكتب عمر الى شَوْذب الخارجي ـ الحروري ، واسمه بسطام، الذي خرج سنة مائة في الجزيرة ، وهـو من بنـي يشـكر : «بلغنـي أنـك خرجت غضبـاً لله ولرسوله ، ولستَ أولى بذلك مني ، فهلم إلي أناظـرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيا دخل فيه الناس ، وإن كان في يدك نظرنا في أمرنا» .

فكتب بسطام الى عمر : قد أنصفت ، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك . وحدثت المناظرة في خُنـاصرة (مـن أعمال حلـب) ، فأقنعهم وكان موضع الفصل أنهما طلبا إليه أن يلعن بني مروان ويتبرأ منهم ، لأنه رد مظالمهم إلى أهلها [٢] ، فلم يرض ، عملاً بالسنة ، وهو أن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعاناً ، وألزمهم بسنة الشيخين أبي بكر وعمر اللذين يتولاهما الخوارج، وأن عمر حينا رد سبايا المرتدين الذين سباهم أبو بكر ، لم يتبرأ عمر من أبي بكر، وكذلك لم يتبرأ أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة،حينما خرجوا على الناس ، وأن الرسول ﷺ كان يحقن دماء وأموال كل من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فما كان من كلا الرجلين إلا أن استحسنـا ماقـال عمـر وما وصفه واقتنعنـا بحجته ، أما أحدهما وهو عاصم الحبشي ، فأقام عند عمر خمس عشرة ليلة، وأمر بعطائه ، ثم مات ، وأما الآخر وهو الشيباني من بني شيبان ، فلحق بقومه، فقتل معهم ، والمهم أن عمر أقنـع الرسولـين اللـذين أرسـلهما زعيم الخـوارج بخطـأ مذهبهم .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ٨٩ ـ ٩٠

(٢) ابن عبد الحكم : ص ١٢٧ ـ ١٣٠

وحاور عمر أيضاً رجلين آخرين من الخوارج ، يحسن ذكر هذه المحاورة ، لأنها فندت آراء الخوارج بإيجاز ، قال ابن عبد الحكم [1]:

دخل رجلان من الخوارج على عمر بن عبد العزيز فقالا : السلام عليك يا إنسان . فقال : وعليكما السلام يا إنسانان . قالا : طاعة الله أحق ما اتبعت ؟ قال : من جهل ذلك ضل .

- قالا : الأموال لاتكون دُولة بين الأغنياء ، قال : قد حُرِموها .
- قالا : مال الله يقسم على أهله . قال : الله بين في كتابه تفصيل ذلك .
- قالا : تقام الصلاة لوقتها . قال : هو من حقها .
- قالا : إقامة الصفوف في الصلوات : قال : هو من تمام السنة .
- قالا : إنا بُعثنا إليك . قال : بلغا ولا تهابا .
- قالا : ضَعِ الحق بين الناس . قال : الله أمر به قبلكما
- قالا : لاحكم الا لله . قال : كلمة حق إن لم تبتغوا بها باطلاً
- قالا : ائتمن الأمناء . قال : هم أعواني
- قالا : احذر الخيانة . قال : السارق محدود
- قالا : فالخمر ولحم الخنزير . قال : أهل الشرك أحق به .
- قالا : فمن دخل في الإسلام فقد أمن . قال : لولا الإسلام ما أمنا .
- قالا : أهل عهود رسول الله ﷺ . قال : لهم عهودهم
- قالا : لا تكلفهم فوق طاقتهم . قال : لايكلف الله نفساً إلا وسعها .
- قالا : خرب الكنائس . قال : هي من صلاح رعيتي .
- قالا : ذكرنا بالقرآن . قال : واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله
- قالا : تردُّنا الى من أرسلنا . قال : ما أحبسكما .
- قالا : فما نقول لإخواننا ؟ قال : ما رأيتما وسمعتما .
- قالا : تردنا على دواب البريد ؟ قال : لا ، هو مال الله لا نطيبه لكما .
- قالا : فليس معنا نفقة . قال : أنتما إذن أبناء سبيل ،علي نفقتكما .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز : ص ١٦٦ ومابعدها

وكذلك جادل عمر القدرية بمنطقه وحجته القوية وقدرته على الجدل وهم الذين ينكرون قدر الله تعالى ، يظهر ذلك في مناظرته غيلان الدمشقي ورجلاً آخر في القدر :

ـ قالا: نقول ما قال الله: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾. فقال عمر: يقول الله: ﴿إنا هديناه السبيل، إما شاكراً وإما كفوراً﴾ فسكتا. ثم قال لهما: اقرءا، فقرءا حتى بلغا: ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً، وما تشاءون إلا أن يشاء الله..﴾ الخ السورة قال عمر: كيف تريان: تأخذان الفروع، وتدعان الأصول!

ثم بلغه أنهما أسرفا في القول ، فأرسل إليهما ، فقال لهما :

ـ ألم يكن في سابق علم الله حين أمر الله إبليس بالسجود ألا يسجد ؟ فقالا : نعم .

ـ فقال : أولم يكن في سابق علم الله حين نهى آدم وحواء عن الشجرة أن يأكلا منها ؟ فقالا : نعم .

ثم تاب غيلان على يد عمر ، ولكنه كان كاذباً في توبته ، إذ استمر على رأيه حتى قطعت يداه ورجلاه ، وصلب في أيام هشام بن عبد الملك .

١٨ ـ الاهتمام بنشر الإسلام :

أدرك عمر الهدف الحقيقي من رسالة النبي ﷺ وهو نشر الإسلام في أنحاء المعمورة، واستصغر ما سوى ذلك من الأهداف الحقيرة، التي ينظر إليها البشر عادة . وبدت له مواقف شهيرة حاسمة في هذا المضمار ، منها :

ـ كتب عمر الى عبد الحميد بن عبد الرحمن : «كتبتَ إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة ، يُسلمون من اليهود والنصارى والمجوس ، وعليهم جزية عظيمة ، وتستأذنني في أخذ الجزية منهم .

وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ داعياً الى الإسلام ، ولم يبعثه جابياً . فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة ، ولا جزية عليه [1]. وتكرر جوابه هذا حينما اعتنق الإسلام كثير من أقباط مصر ، فطلب والي مصر أن يأخذ الجزية من الأقباط بعد إسلامهم ، فمنعه عمر ، وقال ذلك القول ؛ لأن حكم الاسلام الصحيح : هو أن الذي يسلم من أهل الذمة تسقط عنه الجزية بإسلامه . وقال عمر أيضاً : «لعمري لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يديه» .

ـ وكتب عدي بن أرطاة الى عمر بن عبد العزيز :

ـ أما بعد ، فإن الناس ، قد كثروا في الإسلام ، وخفت أن يقل الخراج ؟ فكتب اليه عمر : فهمت كتابك ، ووالله لوددت أن الناس كلهم أسلموا ، حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا [2] .

ـ وكتب الى العمال فقال :

وأما الإسلام ، فإن الله بعث محمداً ﷺ الى الناس كافة ، فقال : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ وقال: ﴿يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ وقال الله تبارك وتعالى فيما يأمر به المؤمنين من شأن المشركين: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فإخوانكم في الدين﴾ فهذا قضاؤه وحكمه، فاتباعه لله طاعة، وتركه معصية لله، فادع إلى الإسلام وأمر به، فإن الله تعالى قال: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين﴾ فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية اليوم، فخالط، عمَّ المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه[3] .

---

(١) الخراج لأبي يوسف : ص ١٣١
(٢) حلية الأولياء : ص ٣٠٥
(٣) ابن عبد الحكم : ص ٩٤

ـ وكتب عمر الى عروة بن محمد عامله على اليمن[1] :

أما بعد ، فإنك كتبت إلي تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ، ثابتة في أعناقهم كالجزية ، يؤدونها على كل حال ، إن أخصبوا أو أجدبوا ، أو حيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين، ثم سبحان الله رب العالمين. إذا أتاك كتابي هذا فدع ما تنكره من الباطل ، الى ماتعرفه من الحق ، ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغاً بي وبك مابلغ ، وإن أحاط بمهج أنفسنا ، وإن لم ترفع إلي من جميع اليمن إلا حَفْنة من كتَم [2] ، فقد علم الله أني بها مسرور ، إذا كانت موافقة للحق ، والسلام .

وكان عمر يمنح هبات من المال لأهالي البلاد المفتوحة لترغيبهم في الإسلام ، فأعطى قائداً نصرانياً ألف دينار تألفه بها على الإسلام ، وأدخل الجراح بن عبدالله عامله على خراسان في الإسلام نحواً من أربعة آلاف شخص .

ومن أنشطة عمر في الدعوة الى الإسلام : أنه بعث عبد الأعلى بن أبي عمرة رسولاً الى إليون الثالث طاغية الروم يدعوه الى الإسلام ، قائلاً له : فإن دخل إليون في دين الله ، حقن دماء المسلمين ودماء الروم على السواء . وكتب عمر إلى ملوك الهند يدعوهم الى الإسلام والطاعة ، على أن تبقى أملاكهم وإماراتهم بأيديهم ، ولهم ماللمسلمين ، وعليهم ماعليهم ، وكانوا قد بلغهم سيرة عمر ، فأسلموا وتسموا بأسماء العرب ، ودخل في الدين كثير من أهالي بلاد ماوراء النهر ، ولم يبق واحد من البربر في المغرب إلا دخل الإسلام على يد اسماعيل بن عبدالله [3] .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٢٣

(٢) الكتم : نبت يخضب به الشعر ويصنع منه مداد للكتابة .

(٣) الكامل لابن الأثير : ٥/ ٥٤ ، فتوح البلدان : ص ٤٤١ ، الدعوة إلى الإسلام ، أرنولد : ص ٧٦ ، ٣٥١ ، الطبقات لابن سعد : ٥/ ٢٥٨

١٩ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

كانت الطاقة الروحية قوية جداً في نفس عمر بن عبد العزيز بسبب قوة إيمانه ، وشدة إخلاصه ، وتفرغه الكامل لشؤون الخلافة لا يهمه إلا مصالح العامة ، وإرضاء الله ، والخوف من عذاب الله ، فصار لمواعظه تأثير قوي في القلوب والأسماع ، أضاءت بها النفوس ، واستجابت إلى توجيهاته،وتحقق حلم الفلاسفة في عصره بوجود مايسمى بالمدينة الفاضلة .

كان عمر يتمثل روح القرآن ، ويتدبر معانيه في الليل ، وينفذها في النهار ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويطلب من الناس أن يكونوا كذلك آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، كما يأمر القرآن ، فقال في بعض كلماته :

لو أن كل امرىء لايأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ، حتى يلزم بذلك نفسه ، لما كان هناك أمر بالمعروف ، ولانهي عن المنكر ، ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة (١) .

قال رباح بن عبيدة : كنت قاعداً عند عمر بن عبد العزيز ، فذكر الحجاج ، فشتمته ووقعت فيه ، فقال عمر : مهلاً يا رباح، إنه بلغني أن الرجل ليظلم بالمظلمة ، فلا يزال المظلوم يشتم الظالم وينتقصه حتى يستوفي حقه ، فيكون للظالم عليه الفضل (٢) .

ولعمر كتاب عظيم جداً إلى عماله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يبين أن أساس تقدم الأمم وبناء الحضارات على قاعدة الأخلاق المتينة التي أنقذت العرب من جاهليتهم ، فإذا هدموا هذا الأساس عجلوا بتدمير أنفسهم فقال :

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٩

(٢) حلية الأولياء : ٥/ ٢٧٧

أما بعد ، فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ، ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم ، إلا أصابهم الله بعذاب من عنده ، أو بأيدي من يشاء من عباده ، ولايزال الناس معصومين من العقوبات والنقمات ، ماقمع فيهم أهل الباطل ، واستُخفي فيهم بالمحارم .

فلا يظهر من أحد محرَّم إلا انتقموا ممن فعله ، فإذا ظهرت فيهم المحارم ، فلم ينهَهم أهل الصلاح ، نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصي وعلى المداهنين لهم . .

وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم ، وأمن الفساق في مدائنكم ، وجاهروا من المحارم بأمر لايحب الله من فعله ، ولا يرضى المداهنة عليه .

ولعمري إن من الجهاد في سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه ، وإن كانوا الآباء والأبناء والعشائر ، وإنما سبيل الله طاعته .

وقد بلغني أنه بطّأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاءُ التلاوم أن يقال : فلان حسن الخُلُق ، قليل التكلُّف ، مقبل على نفسه ، ومايجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقاً ، بل أولئك أسوأ كم أخلاقاً .

فتسلَّطوا على الفسّاق من كنتم ومن كانوا ، فادفعوا بحقكم باطلهم ، وببصركم عما هم ، فإن الله جعل للأبرار على الفُجّار سلطاناً مبيناً ، وإن لم يكونوا وُلاة ولا أئمة . من ضعُف عن ذلك باليد أو اللسان ، فليرفعه الى إمامه ، فإن ذلك من التعاون على البر والتقوى. قال الله لأهل المعاصي: ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون. أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾ ولينتهين الفجار أو ليُهننَّهم الله بما قال: ﴿لنغرينك بهم، ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾[1] .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٦٠ ومابعدها

ومن وصايا عمر الجامعة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قتال أهل الحرب وما أوصى به منصور بن غالب حين بعثه لقتال الحربيين[1] :

عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك ، فإن تقوى الله أفضل العُدَّة ، وأبلغ المكيدة ، وأقوى القوة ، ولاتكن في شيء من عداوة عدوك أشد احتراساً لنفسك ومن معك من معاصي الله ، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم ، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ؛ لأن عددنا ليس كعددهم ،ولا قوتنا كقوتهم ، فلو استوينا نحن وهم في المعصية ، كانوا أفضل منا في القوة والعدد ، فإن لاننصر عليهم بحقنا لا نغلبهم بقوتنا .

ولا تكونن لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم، ولا أشد تعاهداً منكم لذنوبكم . واعلموا أن عليكم ملائكة الله ، حفظة عليكم ، يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنازلكم ، فاستحيوا منهم ، وأحسنوا صحابتهم ولاتؤذوهم بمعاصي الله ، وأنتم زعمتم في سبيل الله .

ولا تقولوا : إن عدونا شر منا ، ولن ينصروا علينا وإن أذنبنا ، فكم من قوم قد سلط ـ أو سخط ـ عليهم بأشرٍّ منهم لذنوبهم . وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم ، نسأل الله ذلك لنا ولكم .

وارفق بمن معك في مسيرهم ، فلا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حَتى يلقوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ولا كُراعهم [2] ، فإنكم تسيرون الى عدو مقيم جامٌّ [3] الأنفس والكراع ، وإلا ترفقوا بأنفسكم وكراعكم في مسيركم يكن لعدوكم فضل في القوة عليكم في إقامتهم في جمام الأنفس والكراع ، والله المستعان [4] .

---

(١) حلية الأولياء : ٥/٣٠٣

(٢) الكراع : الخيول

(٣) الجام : أي الذي ذهب إعياؤه

(٤) حلية الأولياء : ٥/٣٠٣ ، ابن عبد الحكم : ص ٨٤ ومابعدها

هذه الرسالة تدلنا على خبرة عمر بشؤون الحرب والسياسة والقيادة ، وحرصه على المعاني الإنسانية بين المسلمين ومع الأعداء .

وقد كان لهذه المواعظ تأثيرها في القلوب ؛ لأن الموعظة إذا خرجت من قلب الواعظ المخلص دخلت قلب السامع ، فقد كان عمر يكتب الموعظة الى العامل من عماله ، فينخلع منها ، وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة ، وطوى البلاد من شدة ما تقع الموعظة منه .

كتب الى بعض عماله : اذكر ليلة تمخض بالساعة ، فصباحها القيامة ، فيالها من ليلة ، وياله من صباح ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً .

وكتب الى عامل آخر : أذكرك طول سهر أهل النار في النار ، مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله ، فيكون آخر العهد بك ، وانقطاع الرجاء منك ، قالوا : فخلع هذا العامل نفسه من العمالة ، وقدم على عمر ، فقال له : مالك ؟ فقال : خلعت قلبي بكتابك يا أمير المؤمنين ، والله لا أعود الى ولاية أبداً (١).

٢٠ ـ إنصاف أهل الذمة ومعاملة أهل الحرب :

العدل لا يتجزأ، فعمر عادل مع نفسه ومع أهل بيته ومع بني عمومته بني مروان ومع المسلمين قاطبة ومع غير المسلمين ، فهو في رده المظالم لم يفرق بين مسلم وغير مسلم ، فحينما أمر مناديه أن ينادي : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص أبيض الرأس واللحية ، فقال : كما ذكر سابقاً .

ـ يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عز وجل، قال: وما ذاك؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي ـ والعباس جالس ، فقال له : يا عباس ما تقول ؟ قال : أقطعنيها يا أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وكتب لي بها سجلاً .

(١) البداية والنهاية : ٩/٢٠٨

فقال عمر: ما تقول ياذمي ؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله عز وجل ، فقال عمر : كتاب الله أحق أن يُتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، فاردد عليه ياعباس ضيعته ، فردها عليه .

فجعل عمر لايدع شيئاً مما كان في يديه وفي يدي أهل بيته من المظالم إلا ردَّها مظلمة مظلمة [1] .

ولم يكتب عمر بإنصاف أهل الذمة ، وإنما أمر بتقويتهم ، فكتب الى زيد بن عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب واليه على الكوفة :

كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند ، فأعطِ منهم من كان عليه دين في غير فساد ، أو تزوَّج فلم يقدر على نقد ، والسلام .

ثم كتب إليه زيد : إنه قد بقي عندنا بعد ذلك ، فكتب إليه عمر : أن قوِّ أهل الذمة ، فإنا لانريدهم لسنة ولا لسنتين [2].

لكن أمر عمر بنزع السلاح من بيوت أهل الذمة [3] ، وهذا حق وعدل ، وتنزه عمر عن إلحاق الظلم بأهل الذمة كما كان يفعل الحجاج ، قال نوفل بن أبي الفرات : كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز ، فكنت أختم على بيادر أهل الذمة ، فجاءني كتاب عمر ألا تفعل ، فإنه بلغني أنها كانت من صنائع الحجاج ، وأنا أكره أن أتأسى به[4].

وأما معاملة أهل الحرب : فتعتمد على المعاملة بالمثل ، وعلى إعداد الجيش المقاتل إعداداً قوياً ، جاء في عهد عمر السابق الى منصور بن غالب حين بعثه لقتال أهل الحرب :

---

(١) أخبار عمر للآجري : ص ٥٧ ـ ٥٨
(٢) ابن عبد الحكم : ص ٦٨
(٣) المرجع السابق : ص ١٥٩
(٤) حلية الأولياء : ٥/٣٠٦

وانتخبت لكم الجند ، وأغنيتك بأرض الشرك عن أرض الصلح ، وبسطت لك أفضل مابسطت لغاز ، فلم أجعل لك علة في التقوية ، وبالله الثقة ولا حول ولا قوة إلا بالله [1] .

وتميزت مواقف عمر مع الروم بالجرأة والحزم والصرامة ، فقد بلغه عن طريق رسوله الى ملك الروم أن مسلماً أسير لدى الروم يعمل كل يوم بطحن الحنطة وخبزها ، فكتب الى صاحب الروم :

أما بعد ، فقد بلغني خبر فلان بن فلان ، فوصف له صفته ، وأنا أقسم بالله ، لئن لم ترسله إليّ ، لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولها عندك وآخرهم عندي . فلما رجع إليه الرسول قال : ما أسرع ما رجعت ! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز ، فلما قرأه قال : ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا ، بل نبعث إليه به .

ثم بلغ ملك الروم وفاة عمر بن عبد العزيز ، فظهرت عليه الكآبة ، فقال : قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات .

ثم قال لرسول عمر: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء ، لم يُترَك بينهم إلا قليلاً ، حتى يخرج من بين أظهرهم .

ثم بعث بالأسير مع رسول عمر وقال : ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته ، ثم نرجع فيه بعد مماته[2] .

وتتلخص أعمال عمر الخارجية في طلبه من مسلمة بن عبد الملك التخلي عن بعض المراكز الأمامية في بلاد الروم ، فجلا عن طرندة وقفل الى ملطية ، وكتب الى ملوك السند يدعوهم الى الإسلام ، فأسلم بعضهم وتسموا بأسماء عربية .

---

(١) ابن عبد الحكم ص ٨٧

(٢) ابن عبد الحكم : ص ١٦٨ ـ ١٦٩

وفي ناحية المغرب وصل المسلمون بقيادة السمح بن عبد الملك الخولاني الى مدينة طولوز وقتل في أثناء حصارها .

٢١ ـ صون الدماء :

آثر الخليفة عمر السلام والأمان ، والإقناع بالحجة والبرهان في داخل الدولة وخارجها ، وكره إراقة الدماء كما يكره الإسلام ذلك ، وفضل معالجة الأمور والمشكلات بالحق والعدل ، لذا كره سيرة الحجاج ونقده أشد النقد .

وكتب الى عامل له : أما بعد ، فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لايقضى بين الناس إلا بالحق وهم لايظلمون[١] .

وكتب أيضاً الى عامل آخر : أما بعد ، فلتجف يداك من دماء المسلمين ، وبطنك من أموالهم ، ولسانك عن أعراضهم ، فإذا فعلت ذلك فليس عليك سبيل، ﴿إنما السبيل على الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، أولئك لهم عذاب أليم﴾[٢].

وكتب إلى عمر صالح بن عبد الرحمن وصاحب له،ولأهما عمر شيئاً من أمر العراق ، يعرضان له : أن الناس لايصلحهم إلا السيف .

فكتب إليهما : خبيثين من الخبث ، رديئين من الردى ، تعرضان لي بدماء المسلمين، ما أحد من الناس إلا ودماؤكما أهون علي من دمه[٣] . وحينما بلغ عمر أن خارجة خرجت عليه بالعراق ، كتب الى عامله يأمره ألا يحركهم إلا أن يسفكوا دماً ، أو يفسدوا في الأرض ، فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك ، وانظر رجلاً صليباً حازماً فوجهه إليهم ، ووجه معه جنداً ، وأوصه بما أمرتك[٤] .

---

(١) حلية الأولياء : ٥/٣٠٧

(٢) حلية الأولياء : ٥/٣٠٧

(٣) المرجع السابق

(٤) تاريخ الأمم الإسلامية للخضري : ١/١٨٢

٢٢ ـ تقدير أهل الرأي والفصاحة :

إن الانصياع للحق سمة العقلاء ، وميزة الكبار ، ومنهج أهل الحق وأتباع القرآن ، منهم عمر بن عبد العزيز . وفد عليه وفد الحجاز ، فاختار الوفد غلاماً منهم ليتكلم عنهم ، فلما ابتدأ الغلام بالكلام ، وهو أصغر القوم سناً ، قال عمر :

ـ مهلاً ياغلام ، ليتكلم من هو أسن منك . فرد الغلام :
ـ يا أمير المؤمنين ، المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً ، فقد استجاد له الحلية .
ـ يا أمير المؤمنين ، ولو كان التقدم بالسن ، لكان في هذه الأمة من هو أسن منك .
فقال عمر :
ـ تكلم ياغلام ، فتحدث الغلام قائلاً :

ـ نعم يا أمير المؤمنين ، نحن وفود التهنئة، لا وفود المرزِئة ، قدمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذي منَّ بك علينا ، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة . أما الرغبة فقد أتانا منك الى بلدنا ، وأما الرهبة فقد آمننا الله بعدلك من جورك .

ـ فقال عمر : عظنا يا غلام وأوجز . فقال :
ـ نعم يا أمير المؤمنين، إن أناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم، وطول أملهم ، وحسن ثناء الناس عليهم ، فلا يغرنك حلم الله عنك ، وطول أملك ، وحسن ثناء الناس عليك ، فتزل قدمك .
ـ ثم نظر عمر في سن الغلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة ، فأنشأ عمر يقول :

تعلَّم فليس المرء يولد عالماً ... وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده ... صغير إذا التفت عليه المحافل

٢٣ ـ الحرص على أخوة الإسلام والاتحاد الإسلامي :

الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب ، والأمة الممزقة الأوصال ضعيفة البنية ، سهلة المأخذ والسيطرة عليها من أعدائها ، ولقد مني عمر في خلافته بتفرق المسلمين شيعاً وأحزاباً ، فحاول رأب الصدع ، وجمع الكلمة بالجدال والمناظرة أحياناً ، وبالإرشاد والتنبيه أحياناً ، وبإرسال الكتب الى العمال لحملهم على الحفاظ على اتحاد المسلمين .

من هذه الكتب : ما كتبه عمر إلى الضحاك بن عبد الرحمن في أخوة الإسلام ، ونهيه عن الحِلْف ، وهو كتاب مطول ، جاء فيه (١) :

وأنتم معشر العرب فيما قد علمتم من الضلالة والجهالة والجهد وضنك العيش وتفرّق الدار ، والفتنُ بينكم عامة ، والناس لكم حاقرون ، مستأثرون عليكم بالدنيا ، وليس من ضلالتهم من شيء إلا وأنتم على مثله .

أو لم يسمعوا الى قول الله في كتابه : ﴿إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ وقوله : ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ .

وقد ذُكر لي مع ذلك أن رجالاً يتداعون الى الحلف ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحلف ، وقال : لاحِلْف في الإسلام . قال : وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة . فكان يرجو أحد من الفريقين، حفظ حلفه الفاجر الآثم الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله ، وقد ترك الإسلام حين انخلع منه ، وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصناً ، أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وَليجة ، تحذيراً بعد تحذير ، وأذكرهم تذكيراً بعد تذكير .

---

(١) ابن عبد الحكم : ص ١٠٣ ـ ١٠٦

نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خِلافة في ديننا وألفتنا وذات بيننا ، والسلام .

بهذا الذكاء ، والحصافة ، والبصيرة النافذة ، استطاع عمر بالتأكيد على اتحاد المسلمين أن يصهر القبلية العربية ، ويذيب الفوارق والعنصريات ، ويطفىء نار الفتنة الجاهلية في الشام وغيرها ، ويجمع الناس على منهج الإسلام : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (١) .

خامساً ـ إصلاحات عمر بن عبد العزيز :

أوجد عمر في عهده نهضة شاملة في كل مرافق الحياة ، وأرسى معالم حضارة عتيدة تناولت كل زوايا المجتمع ، ووضع الأطر القوية الصحيحة لصرح مدنية شملت المعاني الروحية بجانب النواحي المادية ، في مجال العمران وأعمال الخير ، والزراعة ، والحكم والإدارة ، والقضاء ، ورفع الظلم ، والحفاظ على اتحاد الأمة وتقدير السلف .

فمن أعماله العمرانية :

توسيع المسجد النبوي في أثناء ولايته على المدينة بأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك . وهو الذي بنى الجُحْفة ، واشترى ملطية من الروم بمائة ألف أسير وبناها (٢) ، ولكنه لم يزخرف المساجد ، وأبى أن يكسو الكعبة .

---

(١) الحديث الأول رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي موسى الأشعري ، والحديث الثاني رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير .

(٢) فوات الوفيات : ٢/ ٢٠٨ ، البداية والنهاية : ٩/ ١٩٤

ومن أعماله الخيرية :

إنشاء مسجد في مدينة سرقوسة بجنوبي فرنسا ، وعمارة الخانات (النزل والفنادق) في الطرق والبلدان القاصية ، كتب الى أحد عماله : «أن اعمل خانات ، فمن مرّ بك من المسلمين فأقروه يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، ومن كانت به علة فاقروه يومين وليلتين ، وإن كان منقطعاً فأبلغه بلده» .

وفي الزراعة : شجع عمر على استصلاح الأرض وإحياء الأراضي البور ، وإعطائها للأكفأ الذي يستصلحهاويعنى بشأنها، حدث سليمان بن موسى أن قوماً من الأعراب خاصموا الى عمر بن عبد العزيز قوماً من بني مروان في أرض كانت الأعراب أحيوها ، فأخذها الوليد بن عبد الملك ، فأعطاها بعض أهله ، فقال عمر بن عبد العزيز ، قال رسول الله ﷺ : «البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، من أحيا أرضاً ميتة فهي له» فردها على الأعراب [1] . وقال أيضاً : «ونرى أن تُرد المزارع لما جعلت له ، فإنما جعلت لأرزاق المسلمين عامة ، فإن أمر العامة هو أفضل للنفع ، وأعظم للبركة [2] .

وفي الحكم والإدارة :

نظر عمر إلى جهاز الدولةنظرة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، فقد كانت الحكومة في عهد الخلفاء الأمويين معنية بجمع الأموال وإنفاقها في مصالح الدولة ، لاصلة لها بأخلاق الناس وعقائدهم ، فعني عمر على نقيضهم بنشر الأمن والسكينة ، وتحصين الأمة من الانحراف الخلقي ، وحمايتها من التفرق والانقسام، ومحاربة الأخطاء والشبهات التي أدت الى وجود الفرق ،كذلك عني بنشر

---

(١) حلية الأولياء : ٥/ ٢٧٤

(٢)ابن عبد الحكم : ص ٩٩

الإسلام والترغيب في اعتناق الدين الصحيح ، وإلغاء الضرائب والعشور والرسوم المجحفة ، وقال في ذلك كلمته الخالدة :

«إن الله جل ثناؤه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً الى الإسلام ، ولم يبعثه جابياً» ،[1] وقال عن المكس : وأما المكس (الجمارك) فإنه البخس الذي نهى الله عنه، فقال: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ غير أنهم كنوه باسم آخر .[2]

واعتنى بالإدارات والولايات ، فاختار لها الأكفاء الثقات المصلحين ، وعزل عنها الولاة الظلمة المفسدين ، ورفع الظلم عن جيوش المسلمين ، وكان يتابع بنفسه أخبارهم وأخبار الناس في تلك الولايات ، ليطمئن الى راحة الرعية التي يؤثرها على راحته ، وعلى علاقة الوالي بالناس .

وأخذ بمبدأ حرية التجارة وحرية الملاحة في البحار ، فقال : وأما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر، قال الله تعالى: ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره، ولتبتغوا من فضله﴾ فأذن فيه أن يتجر فيه من شاء وأرى ألا نحول بين أحد من الناس وبينه ، فإن البر والبحر لله جميعاً سخرهما لعباده ، يبتغون فيهما من فضله ، فكيف نحول بين عباد الله وبين معايشهم [3] .

ورأى توحيد المكيال والميزان في جميع أنحاء الدولة ، وحرم على الإمام والعمال وموظفي الدولة الاتجار حتى لايستغلوا مناصبهم ، ولكيلا يدخل عليهم الكسب الحرام [4].

وحرم السخرة بأنواعها وهي التي درجت عليها الحكومات السابقة ، وجعل الحمى(وهو ما استحوذ عليه الأمراء السابقون من الأراضي الواسعة) للناس جميعاً،

---

(١) الخراج لأبي يوسف : ص ١٣١ ، ط السلفية

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم : ص ٩٩

(٣) المصدر السابق : ص ٩٨

(٤) المصدر السابق : ص ٩٨ ـ ٩٩

فقال : «ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة ، وقد كانت تحمى فتجعل فيها نَعَم الصدقات ، فيكون في ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات . وأدخل فيها وطعن فيها طاعن من الناس ، فنرى في ترك حماها والتنزه عنها خيراً ، إذا كان ذلك من أمرها ، وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين ، إنما هو الغيث ينزله الله لعباده ، فهم فيه سواء» (١) .

وألغى الحراسة والحجابة والحجاب ، وفتح أبوابه للناس ، لرفع ظلاماتهم وشكاويهم ، وأعلن الجوائز والمكافآت المالية لمن يدله على الخير ويخبره بحقيقة الحال . ويرشده لما فيه مصلحة المسلمين كافة (٢) .

وكتب الى عماله يأمرهم بالمحافظة على الصلوات في وقتها ، والعناية بالمدارس ونشر العلم، واتباع ما أمر الله به واجتناب مانهى الله عنه ، ودعوة أهل الذمة الى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٣) .

وأوصى عماله بالاحتياط في تنفيذ العقوبات ودرء الحدود بالشبهات (٣) ، وأرسل كتابا يوصي فيه بالصبر عند المصيبة ، وينهى فيه عن النياحة وعن اتباع النساء للجنائز وعن لطم الخدود وشق الجيوب ، وأمر صاحب الشرطة أن يمنع النوح في الدار أو في الطريق ، فإن الله أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الأمرين في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون. أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون﴾(١) .

وحظر في رسالة مطولة تناول مختلف أنواع الأنبذة والخمور والمسكرات ، وأبان فيها مضارها وخبثها، وما أبدل الله عنها من الأشربة الطيبة المباحة من العسل

---

(١) المصدر السابق : ص ٩٧
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم : ص ١٣٧
(٣) المصدر السابق : ص ٧٨ ـ ٨٣
(٤) المصدر السابق : ص ٦٥ ـ ٨١ ،حلية الأولياء : ٥/ ٣١١ ، أخبار عمر للآجري ؛ ص ٧٨
(٥) ابن عبد الحكم : ص ١٠٦

obeikandl.com

واللبن والسويق ونبيذ الزبيب والتمر غير المتخمر [1] . ومنع من أحلاف الجاهلية التي تقوم على أساس قبلي ، وحض على أخوة الإسلام ، واتحاد المسلمين [2] .

وفي القضاء :

اختار أكفأ الناس له وأعلمهم بالشريعة ، وجعل له منزلة كبيرة ، فرفع سلطة الولاة عن القضاة ، وجعل الخليفة مرجعهم الأعلى ، ونهى عن تنفيذ أي حكم بقتل أو قطع إلا بعد مراجعته هو .

وفي سياسة المال والاقتصاد :

رد المظالم الخاصة التي ظلمها بنو أمية والعامة بين الناس إلى أهلها ، حتى ساد العدل والحق ، وتحقق الرفاه أو الرخاء الاجتماعي ، فكان ينادى بالزكاة والصدقات ، فلم يجد المنادي من يأخذها ، وسار بسياسة التقشف وتقليل النفقات العامة ، ولكنه كان يعطي الأمراء والولاة عطاء سمحاً ، وأخذ بمبدأ كون الخليفة مجرد حارس وأمين على مال الدولة والأمة ، وانتهج سياسة المراقبة المالية ومحاسبة العمال والولاة عن أمور الدخل والصرف والإنفاق ، واعتبر وحدة بيت المال أساس الإنفاق لسد عجز بعض الأمصار ، فقد أمر بسد الشام حاجة العراق حينما اشتكى اليه ذلك والي العراق .

وأخذ بمبدأ حرية التجارة ، ولكن مع رقابة الأسعار لمنع الجشع والأطماع ، ورقابة النقود، وحصر ضرب الدراهم والدنانير في بيت المال، وتفرده في تبديلها

---

(1) المصدر السابق : ص ٨٩ ـ ١٠٢

(2) المصدر السابق : ص ١٠٣ ـ ١٠٦

وسحبها من التداول في حال عدم رواجها ، وأن النقود ليست للاكتناز والتجميع والتكديس ، فأمر بطبع عبارة عليها : «أمر الله بالوفاء والعدل» ، كما أن بيت المال أيضاً ليس خزانة لتجميع الأموال كما كان يرى من قبله ، وإنما هو للإنفاق ؛ لأن ذلك يساعد على تنشيط الحركة المالية والتجارية والعمرانية ، فليس المال غاية في ذاته ، وإنما ذو وظيفة اجتماعية ، حتى يحافظ على الملكية الفردية وتتجه نحو غاياتها الصحيحة .

وليست الضرائب إلا ضرورة لسد الحاجة ، حتى لايرهق الناس بأعبائها ، فهو لايرى أن كثرة الضرائب دليل الازدهار والنشاط الاقتصادي ، لذا رفع الضرائب المجحفة عن كواهل الناس ، وأخذ بمبدأ تعادل الميزانية بين الواردات والنفقات .

والمطلوب تحقيق حد أدنى للمعيشة في سياسة عمر ، المتمثلة كما بينا بتأمين القوت والغذاء ، والكساء ، والمسكن والأثاث ، والخادم ووسيلة الركوب ، مما ساعده على القضاء على ظاهرة الفقر ، وتحقيق إغناء الناس .

والصدقات (الزكوات) تجبى كما بين الله ورسوله دون ظلم ولا تعدٍ ، وتصرف في مستحقيها بلا محاباة .

وفي الميدان السياسي ـ الاجتماعي :

أعلن استئناف الحرية السياسية التي قررها الإسلام لأتباعه ، فعزل نفسه من الخلافة ، وأعطى الحق في العزل للرعية إذا انحرف عن جادة الاستقامة ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وهو الذي عانى من افتقاد هذه الحرية في عهود الوليد والحجاج وسليمان .

وحرص عمر رضي الله عنه على اتحاد الأمة وجمع الكلمة والقضاء على الفتن والخلافات ، ومحاربة أسباب الفرقة الفكرية أو العقدية ، أو النزعة الجاهلية القبلية

التي ظهرت بظهور الخوارج والشيعة وغيرهم من الفرق ، مما أكسبه حب الجميع من طريق مجادلاته ومناظراته ومكاتباته ورسائله الداعية الى اتباع القرآن والسنة والتزام سنة الراشدين، والاستظلال بنعمة الأخوة في الله، ﴿إنما المؤمنون إخوة، فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ والعناية بالدعوة إلى دين الله ونشر الإسلام في كل مكان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، وعمل صالحاً وقال: إنني من المسلمين﴾ .

والخلاصة : أن هذه الإصلاحات الدينية تختلف جذرياً عن سياسة الأمويين السابقة ، وهي السياسة العربية المستندة على مصلحة الدولة ، والتي أدت إلى إلحاق الضرر بالأمويين ، وتألب الفئات المناهضة لحكمهم ، والمعارضة لسياستهم من شيعة وخوارج وموالٍ (مسلمين غير عرب) ، مما جعلهم يتجمعون على قلب الدولة الأموية ، والدعوة الى دولة هاشمية جديدة .

فذلكة في فضل عمر :

وبالرغم من هذه الأعمال العظمى والإصلاحات الكبرى ، اختلف العلماء أيهم أفضل؟ هو أو معاوية بن أبي سفيان؟ ففضل بعضهم عمر لسيرته وعدله وزهده وعبادته ، وفضل آخرون معاوية لسابقته وصحبته ، حتى قال بعضهم : ليوم شهده معاوية من رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبد العزيز وأيامه وأهل بيته[1] . والحق أن لعمر فضلاً كبيراً في العودة إلى سيرة الخلفاء الراشدين، وتلك مزية كبيرة لا يعاد لها شيء، أما صحبة الرسول ﷺ فلها منزلة خاصة، لا يصح أن تقارن بالأعمال الكبرى والآثار العظمى لعُمر وغيره على مدى التاريخ، والمرد في كل ذلك إلى الله تعالى، ولا نتألى على الله سبحانه: قال جل ثناؤه: ﴿إن ربك واسع المغفرة، هو يعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض، وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾ (سورة النجم، الآية: ٣٢).

---

(١) البداية والنهاية : ٩/ ٢٠٠